

## قرطاج تبعث من جديد

شعر: مختار المومني

{ إلى روح محمد البوعزيزي الذي كان جسده وقودا للثورة المباركة  
{ وإلى كلّ الشهداء الذين صنعوا فرحة وزرعوا أملا في غد أفضل



"بن علي يا جبان

شعبنا لا يهان "

إنه الوعد

وعد الثورة والدم العاصف المهرق

يعلن فرحة النصر

يرسم شارتما

يحرق كل أزمنة القهر

بوعزيزي لم يحرق جسدا

بل أحرق عهدا من التكميم والتخويف

والتشريد

بوغزيري لم يحرق جسدا  
بل أحرق دكتاتورا بعرشه البانس المنكود  
لا تقل ثورة الياسمين

بل ثورة الشبان من أرض الشمال

إلى "بر الجريه"

لا تقل ثورة الياسمين

بل فرحة باركتها الشعوب

فغنت : اليوم عيدي

فلتسع الدنيا

إنا هنا

ARCHIVE

أرض قرطاج

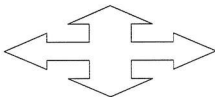
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لسترد ماضي حنبعل التليد

نبتني دولة الحمد

دولة يحرسها الحب

على أنغام الزغاريد



## جسد العروبة جفاف "إلى جسدنا العربي... حتى إشعار آخر"



شعر: صالح الطرابلسي

جسد العروبة جفاف !

"إلى جسدنا العربي... حتى إشعار آخر"

شعر: صالح الطرابلسي

ARCHIVE

http://ArabicLibrary.com

هي العروبة جسد جفاف !

والدورق ظامئ لمعتق ،

كان يلهيها ! ..

هي الآن ،

شتات ممزق الأوصال ،

فأين عشاقها اليمتطوا

مطايا رحالها !؟

وأيـن ... أين صعاليك الهوى تصحو

حيثهم لكل نائبة ،

تصيب المربع في كلّ

مضاربها ! ؟

هي العروبة جسد فلاة ! ...

وخيوها التي قالوا :

أصيلة :

لقد قهجت ...  
وعادوها بالصبح قد هجع ،  
فما عاد صهيلها يرهب الأعداء !  
وفرسانها ...  
سيوفهم قلت ، والسروج قد  
ضائق بما ماتهم ،  
فألقت  
بهم عن متنها ...  
لقد سقطوا على  
فضيحتهم أذلاء ، فأنخلوا ! ...  
لا عترة العيسى  
قد أشهر سيفه نصره للشرف  
الرفيع ،  
ولا "زرقاء" ...  
تستشرف الخطب  
عن بعد ... ،  
كي تشحنه  
عزيمتها لزال العدو ،  
فتتصر ! ..  
قضي الأمر، فهذه  
سنن لعولة وحشية ،  
عنوة تجتاح مرابعنا ،  
كم هو هشّ جسد عروبتنا ! ..  
تسطر عليه جيمنة ،  
تتملك نواصيه ،  
لها سحر ، من ...

أساطيرنا الظلماء قد أخذ

به فورا قد هدموا قيما

كانت ثوابتنا !

يا عنفها ! ..

يا عنفها لقد هدمت

تعاليم ...

بالأمس كانت هي الأسس

تبني على وقعها ،

أغاليها ! ..

في عرف هذه العولمة :

جرم ...

أن تنتمي إلى فصيلة دمك ...

جرم ...

أن تعلم بقصيدة تستنير أحرفها ،

لكي تعتق الشمس من عقاب

ظلامها ! ..

جرم ...

أن نكون كما نشتهي ...

نخلأ بواحاتنا " مرفوع

الهامة يمشي " ... ! ..

جرم

أن تعدّ العدى

لنصرة الأوطان من كيد العدى

وفي عرف هذه العولمة :

محبة الأوطان يا ويحنا ،

قد أصبحت كبضاعة ،،،

بقادر أنماها تروج في الوري  
فتعنى ؟ ..  
يا لجورها ! ..  
يا لجورها هذه العولة !  
شئى مذاهيها ...  
في كتابها المفتوح لكم ،  
تغرق في أفانين البشاعة ! ..  
إنها تحقن الأجساد بمصل  
في الشرايين ...  
يزرع داء فقدان المناعة !  
يا ويحنا ! ...  
جار الطغاة على ضعفنا  
كهيمنة ، ،  
ومازلنا في كهفنا  
نغط في نوم بلا حلم ، وقد  
كنا زمانا أمة ...  
فرسانها صناديد ...  
قد فجعروا التاريخ ملاحم :  
تشتعل بالبطولات ! ..  
قد أعدوا للعدى ما استطاعوا  
من قوى ...  
فشادوا على كوكب الأرض  
صروحاً ... ،  
لأعنى الحضارات ! .

## الشَّعب العظيم



شعر : عبد السّلام لصيلع

{ الإهداء: إلى شعبنا التونسي العربي المسلم ... إلى شهدائنا  
الأبرار .. شهداء الحرية والكرامة .. وإلى جيشنا البطل . }

أغني لوطن  
كان ويبقى لنا وطننا ..  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أغني لوطن يجمعنا

ويضمنا

أغني لتراب

هو وطني

أغني لهم

من انتفضوا

وقمّردوا

وثاروا

واستشهدوا ..

أحبّك يا وطني

تونس تتحرك ..

تثور ..

وتنهض

هذه تونس

فيها ولدنا ..

وكبرنا ..

وتربينا ..

وتعلمنا ..

وحلمنا ..

أجيالا ..

أجيالا ..

أجدادا ..

وأحفادا ..

آباء ...

وأبناء ..

هذا شتاؤك يا تونس

يشتعل غضبا

ثورة

ودماء

هذا شتاؤك

يكسر خوفك

وقيدك ..



يبارك في الناس  
روح التحدي  
في عصر التردّي  
هذا شتاؤك يا تونس  
يصنع ربيعاً جديداً  
وشعباً عظيماً  
وحرية ..  
ونفوساً عزيزة أية ..



ويعرفني  
ARCHIVE  
<http://www.archivebeta.sakhrir.com>

هذا شتاء الغضب والثورة  
في القرى والمدن  
والأحياء الشعبية ..  
هذا شتاء الجماعين  
والبطالين  
هذا شتاؤك يا تونس  
يعزف لحن الكرامة  
والحرية ...  
هذا شتاؤك  
ملحمة للثائرين  
هذا شتاؤك يستيقظ ،

يعرّي الفساد والفاستين ..

يفضح التابئين

والسّالين ..

يحطّم الظلم

والظالمين ..

يكشف القاهرين

والقامعين

هذا شتاؤك يا تونس

يبنى تاريخنا جديدا

ومستقبلا جديدا

ووطننا جديدا ..

اجد للغضب العنيد

للثورة

والشهيد ..

اجد لجيشنا ..

ولنا ..

اجد لشعبنا ..

الشعب العظيم الرائع ..

اجد للشارع



## رجل غير عادي في ضيافة البحر المتقارب

شعر: الحبيب دربال

... وثمة وجه كثير الوجوه

يشتهر سيفا ويغمله آخر

وليس غريبا إذا كان مثل ابن آوى

ARCHIVE  
بلاوت المكان ويحنو عليه  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وقد يمتطي صهوة البرق

يادنو من الله ... يادنو

ولكن يظلّ الفتي قانعا بقفاه ،

فأبته يعلم أنّ الصّراصير تموى نقيق الضفادع،

تغشى ككلّ شتاء صقيع الشتاء

وجوع الشتاء ،

وتعلم بالصّيف، تعلم مثله بالصّيف،

ما أروع الصيف يغري الصّراصير

من قال أنّه لم يغر صاحبنا ؟ !

لم يعلمه كيف يكون وقتنا، نقّي الصّميم ؟ !

يواري وصاياه واحدة واحدة

وينفي البراءة عنه

وينفي الرّذاعة عنهم، دراويش هذا الزّمان

أليسوا ضحايا الظّلال ضحاياهم ؟

الله أكبر

ARCHIVE

حان الأوان

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وأذن في القوم شيخ وقال :

"تجوع الصّراصير لكنّها لا تموت

وتبحث عن فوقها هنا أو هناك ،

وليس مهمّا إذا كان سنبله مثلاً ،

أو بقايا طعام ... "

أخيراً يغيب الإمام

ليخرج بعد انتظار قصير،

فيقرأ من سورة اللّهب ما يلي :

خَيِّتْ ظَنِّي وَظَنِّي أُنْكَ السَّبَبَ      لَوْلَاكَ مَا قَلِقَ الْأَصْحَابُ أَوْ غَضِبُوا  
تَأْبَى التَّفُوسُ إِذَا هَالَتْكَ مُشْكَلَةٌ      أَنْ تَتْرَكَ النَّارَ فِي الْأَحْشَاءِ تَنْتَهَبُ  
دَارَتْكَ مَنَعَلًا ، دَارَتْكَ مَغْبِطًا      فَكُنْتَ كَالْمَوْجِ يَدْنُو ثُمَّ يَسْحَبُ  
كَمْ فَبِكَ مِنْ عِلَلٍ قَدْ بَانَ أَسْوُؤُهَا      وَرَغِمَ شِدْقُهَا مَا زَلْتَ تَحْتَطِبُ  
أَرْنَيْكَ قَبْلَ الْأَوَانِ يَا أَبَا لَهَبٍ      رَغِمَ اعْتِقَادِي بَأَنَّ الدَّمَ لَا يَجِبُ  
هَيْهَاتَ يَسْمُو إِلَى الْعُلْيَاءِ مَحْتَبِلٌ      لَوْ خَيَّرُوهُ الْعُلَى لِرَاحٍ يَنْتَحِبُ

وكان يحذرنني عن طقوله

عن أهم المخططات فيها :

ARCHIVE

فقد شئت مناء نعمة أظفاره يشاء المستحيل

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ويعتقد -جأزما- أنه الفارس المنتظر

والولي الذي يعرف جيذا ما له وما عليه

وأنه يقضي على الداء في وقته

والخلافات في مهدها

وهو في آخر الأمر، في آخر العمر : (الفاثق التاطق)

كان ذلك منذ حوالي ثلاثين عاما

أقول ثلاثين مشكلة وخلاف

ثلاثين وعدا ووعدا وعشرين آخر في الانتظار

ثلاثين حرباً من القال والقال  
... وأذكر آني سمعته ذات زوال  
-واسمعه كلّ يوم وفي كلّ حين-  
يردّد ما قد يقال وما لا يقال  
وفي الحالين يشدّ عن القاعدة  
-غريب،



وآخر من كلّ باب يطلّ  
غريب،

كأنّي به ما استاق على هدنة أو على صدمة واعيه ،  
أو كأنه لم يحتمل طعنة الشعراء :  
يموت الفتى من عشرة بلسانه  
وليس يموت من عشرة الرّجل  
غريب ،

لماذا يطلّ غريباً

ونضحك نحن !

ونفرح نحن !

ونحزن نحن !

ونسخر من شدة الكبرياء !

لماذا يحزنني عن أمور أنا أجهل بعضها ؟

أكره بعضها

أرفض الاستماع إليها،

لماذا ؟ لماذا ؟

ARCHIVE

لماذا إذا قلت : أهلا وسهلا

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

يقول : أتعرف ماذا اشتريت ؟

وماذا أكلت ؟

وماذا شربت ؟

أتعرف عبد العظيم \*\* ؟

وشيماء زوجته الطيبة ؟

أتعرف ماذا نعدّ إذا جاء عبد العظيم ؟

وماذا يحبّ من السمك والغلّال ؟

يحبّ الفواكه، يرقص تيهيا ،

ويلتذ -مغلي- بخبز الشعير وقضم الخيار

وشتى الثمار وأشياء أخرى،

وأخبار أخرى ،

ولكنه في الحقيقة يغتال حسين عاما وثيف ،

وخسبون تعني لدى عامة الناس:

تعني تجارب شتى /عقودا من الحلو والمر/ بحرا تلاطم

موجه/ ثم هو الآن يعلن عصيانه

ويلتذ لهذا الفتي أن يكون كذلك

ARCHIVE شقيق القوافل والطعنات

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فأي مدى يمكن أن يكون مداه؟

وأي سنونوة قد تحطّ على كتفه أو على قبضة من شعاع حزين،

ولو كره الكارهون !!!

الهوامش:

\*الفاثق الناطق : عبارة تعني الرجل المعجب بنفسه وآرائه التي يفرضها على غيره معتقدا أنها مثل الأعلى

\*\*البطل الرئيسي في كل روايات البحر المتقارب

وينفي البراءة عنه

وينفي الرذالة عنهم، درواويش هذا الزمان.



## نشيد الإنشاد

شعر : سالم المساهلي

إلى البلب الشادي أبو القاسم الشابي

هو المجد أن تركب الأجودا  
فلا كون دون استباق الغيوب  
وخلق السما عايد في أمة  
فليكن يا بلبل الشابين  
تخل أنجاسا يشد القصيد  
فلولاك ما أومضت غايمة  
وما عانق الشعب خيل الكفاح  
فيا فخرنا أنت عيث المعاني  
كذا صاغنا السهر حيناً فحيناً  
فلا الحب نبض ولا الشعر وقع  
تحيش بنا الأمنيات العظام  
ويلهنا الصوت "هيو" فنصبو  
كانا وردنا البنايع طينا  
ولم نركب الشوق وعدا ورعدا  
وها هابنا في الطلاب الطلاب  
أيا قاهر الداء والخوف عفوا  
وما أنت من صانع الغاصيين  
وأن تستقل السهى مصعدا  
وكشف المدى قبل أن يولدا  
تخير في خبرها المبتدا  
ونسرا على عرشه سيّدا  
يعيد من الحلم ما بدّدا  
ولا عاد للربيع من شرّدا  
وأنت الملال لمن عيّدا  
وأودى بنا في أتون السدى  
ولا الخيل كرز بصّة العدا  
لنسلمها غيلة للردى  
لوضع السيف بوضع الندى  
ولم نعتل الشهب والفرقدا  
ولم نستبق في النداء الصدى  
ولا كان ديواننا المنتدى  
فما أنت من لان أو شددا  
وإن كنت في وجدك الأوحدا

فماذا إذا عدت عود الحبيب  
يزف النشيد لذكراك عطرا  
ألا خلدي يا زهور الروابي  
ملاكا من الطهر سنّ "الأغاني"  
كلما عودة الفاتحين انبلاج  
فكيف لغتنا ملي للقياس الحبيب  
وصدري تسرل بالوجد حتى  
أفسر ماذا وكيف اقتداري  
فقم إننا في اشتباه الكلام  
حنانيك هوّن عليك العتاب  
حنانيك وحب نشيد القلوب  
فهل قبله أن تشد الحروف  
وهل خلّة أن تهيم الخيول  
وهل عبرة أن يسجى النخيل  
شجون تجوب الشرايين رغما  
أيا القاسم يا انبجاس المعاني  
ألا فاشهد الآن آسا الصدى  
فأنت الذي ظلّ وخز الزمان  
لذكراك فينا اكتمال الرّشاد  
وظلّ السماء وشدو الربيع  
كانك في أعين المذكرين  
وها أنسا كالخجيج ابتهاجا

وماذا إذا كنت بسلّ الصدى  
ويشدو بك العلم المفتدى  
ويا طائرا في السما غردا  
فصلّي له الشعر طول المدى  
لذكرى نصيرها مشهدا  
وجيش المشاعر غصن الحدا  
كان الحشا أصبحت موقدا  
على شرح ما ليس لي منجدا؟  
نراك لشرح الهوى موعدا  
وكيف العتاب لمن أفردا؟  
لألا نرى عاشقا مجهدا  
إلى غيمة قد تسح الغدا؟  
ولا خل يلفها المريد؟  
على كفه في الوغى مبعدا؟  
تناشد أيا منا المولدا  
لحرف تملكته سيّدا  
وألك أوردنا المورد  
لتيه تخياله سرمد  
وصون الوداد وحرف الند  
وزهو الصبي إذا أنشد  
نبيا من الغيب مدّ اليد  
بعود نرجيه أن يحمدا

## بأيّ الأناجيل سوف يطل المسيح؟

شعر : محمود غانمي

سلام على الهارين من الشعر لما اعتراهم

ألم يعرف الخلق أن الكلام سبيل الحياة ؟

وفي البدء كان الكلام

وكنا ابتدأنا الحياة بـ " كن "

فهل يعلم الخلق أنا خلقنا أحب الوطن

وأن القصائد مثل العصافير قنوى الرحيل

وتعبر مثل الرياح سياج الحدود

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

يغير جواز سفر؟

وهل للعصافير جنسية أو وطن؟

لماذا يريدون من كلمتين جواز سفر؟

وكنا كتبنا على موج بحر الشمال

بخط غليظ ، بلون كلون الدماء:

" بأيّ الأناجيل سوف يطل المسيح ؟ "

لقد آن لي أن أعيد لوجه البلاد مرايا

الوضوح

أخفا سياي المسيح بناي حزين

ويعبر بالفقراء إلى دولة من حرير

ويطعم من جاع خبز الكلام

ويعزف للهابطين إلى الحزن من جنة الله

لحن الندم ؟

هو الآن يمضي كطير الأبايل نحو الإله

لكي لا يعود إلى الأرض

أرض العدم

وهل سوف يأتي المسيح؟

ولكن بأي الأناجيل سوف يطل المسيح؟

وهم الآن مثل القطيع تنادوا لمرعى خصيب

وحظوا الرحال على ظهر هذا الزمن

ولكن لماذا أعادوا إلى الأرض حرب اليسوس

ومازال في الناس من لم يغادره شوق الحياة

ومازال في أورشليم حمام غفير ذبيح

يصلّي لأجل الخلاص

ومازال إبليس يغوي كثيرا من الجائعين

بتفاحتين على صدر كل النساء

وكأسين من دمع حواء وقت الزول؟

لماذا إذا كنت أهذي على وقع ألحان هذي

الحنن

ولي في البلاد أناشيد عشق

تغني بكل حياد ؟

وفي كل صبح تغني نشيد الوطن

وغمشي

لماذا مشينا ولم نتمش أكثر من خطوتين

إلى الخلف؟

هل قلت خلف المسيح مشينا؟

ولكن بأي الأناجيل سوف يظل المسيح؟

قرطاج كانت تعني لكل القلاع بكل اللغات

لكي لا يعود التنازل لمهد المسيح

وبيروت كانت شرعا لكل الغزاة

وهاهي بغداد صارت وساما لكل العرب

وهل قلت إني ضحية هذا الكلم

وقولي مداد لكل الحرب؟

ولي أن أغني لكل المدن

فغرناطة الجرح هي المدى

وبيكين منها البخور شعاع لكل الشروق

تعاويزة صند لكل الشياطين

والشرق عندي بداية هذا الوجود

وفي البدء كان الشروق

وكنا سكننا طويلا لكي لا نموت

وكنا جوعا حفاة عراة

ولما أتهمنا بقتل الحنا... زير

صرنا جناة

لماذا إذا قلت :

كان الجراد الخسيس بباب الرشيد

يدك البلاد

ونحن نغسّي لأجل البقاء

وفيروز كانت تغني " سنرجع يوما..."  
وفي ملجأ العامرية  
كان الوليد يموت اختناقا  
وكنا نمارس كلّ الطقوس لأجل الصّباح  
وندعو الإله  
وكلّ الدّراويش  
والأنبياء  
لأجل البقاء  
وكان الرّشيد برعم المدام  
يصليّ لما لا يقول النّواصي  
في الحفر أو في الصّلاة  
لماذا إذا قلت  
كنت استنهييت الفناء؟  
أمن فعل أيّ من الأشقياء  
من الفقراء؟  
لماذا إذا قلت هذا الكلام  
أمام المشانق والمخبرين؟  
أمن أجل أن لا أكون سعيدا  
بأني إلى الموت  
من أول الأدعياء؟  
هو الموت عندي خلاص  
صعود إلى الربّ خلف المسيح  
ولكن بأيّ الأناجيل سوف يطلّ المسيح؟

## مدخل إنساني لقراءة الثورة التونسية.

بقلم: نجاح زقيّه

الشعارات التي تحاول استيعاب المدّ القوي لهذه الثورة المباشرة وإعطائها أبعادا متنوعة فإنّها ستبقى أولا وأخيرا حدثا مفصليا في سياق صيرورة الأمم من صنع تونسي محض وقّعها الشعب التونسي بامتياز وساندها الجيش الوطني وتوجت بالانصراف تاريخي لإرادة الشعب بعيدا عن فلسفة الفوضى الخلاقة والتغيير الآتي من الخارج على ظهر دهبابة.

ثورة تونس إذن ليست فقط ثورة جياح فجرها اضطدام عفوي لعربة شعبية لبيع الخضر بملكها الشاب الحرّ محمد البوعزيزي بقاطرة سلطة الاسترقاق مجسّدة في أجهزتها السياسية والأمنية والإدارية التي أمسك بكلّ حيوطها نظام الرئيس المخلوع على مدى ثلاثة وعشرين عاما- هي في الظاهر تنطلق من حادث التصادم المذكور- ولكنها في الصميم انفجار كيميائي إنساني يستحيل الإحاطة بتوليغته الفريدة وقد تصعب إعادة تركيبته مجددا

شرارة الثورة التونسية التي ستظل غملاّ الدنيا وتشغل الناس إلى أجل غير مسمى بات يعرفها القاصي والداني وستظلّ محلّ نقاش في شتى الأوساط الثقافية والسياسية والأكاديمية شرقا وغربا ومبحثا حيويا للعلوم الإنسانية بمختلف فروعها ومشاربها شأنها شأن الثورة الفرنسية أو أعمق منها بالنظر إلى عدّة عوامل أحاطت بها، ولعلّ من أهمّ عناوين يوم الرابع عشر من شهر جانفي 2011 في بلد عربي كان يوصف دائما بأنه البلد الأكثر هدوءا واستقرارا وعزوبا عن الشأن السياسي في محيطه الإقليمي والعالمي هي هذه العناوين البارزة: ثورة الحبز والهرمين- ثورة الشباب والمنظومة المعلوماتية - ثورة الحريات والكرامة- ثورة التنمية والعدالة بين الجهات- ثورة المطالب الاجتماعية المشروعة - ثورة استقلالية الدولة وسيادة قانون المواطنة الخ...

لكن مهما تعدّدت العناوين واختلفت

أفضت المواجهة الإنسانية الباسلة إلى انتصار ثورة مدنيّة حضارية بدون الوقوع في فخّ الفتنة والتطرف والحرب الأهلية.. هذا العمق الإنساني المشرف الذي أسقط كلّ الأقنعة على جميع المزيّفين والمزايدين في الداخل والخارج لا ينبغي تجاهله أو القفز عليه في سبيل غايات معروفة ومتوارية.

وفاءً ممّا لروح البوعزيزي الذي يذكّرنا بروح تلك القرطاجية الخالدة التي صرخت قبل قرون عديدة: "النار ولا العار"، وفاءً ممّا لأرواح جميع شهداء الكرامة والحريّة يتوجب أن يكون المدخل الأساسي لقراءة الثورة التونسية مدخلاً إنسانياً لأنها بالفعل ثورة إنسانية أثبتت بما لا يدعو مجالاً للشك بأنّ الجائع المحروم قد يستطيع تحمّل جوعه وحرمانه لكنه لا يحتمل انتهاك إنسانيته، وأنه في لحظة الغبن الإنساني يتمرّد من أجل الكرامة قبل الخبز فيخرج شاهراً للناس جسد الغضب بلا نقمة ثأرية تحاول الانتقام منهم فتؤذيهم، وأن هؤلاء الناس الذين أمكنهم لزوم الصمت حيال مظالم الحيف والرشوة والمحسوبية والسياسة التنمويّة التحجّرة التي تشكل البيئة المثلى للفقر والحرمان لا يمكنهم ولا يستطيعون غض النظر عن هدر

في مجتمعات أخرى بنفس الطريقة الإبداعية المثيرة، ذلك أن طائر الفينيق الذي أشعل فتيل الثورة عندما أضرم النار في جسده أمام مقرّ السلطة الجبهوية الحاكمة أراد أن يمرّر أكثر من رسالة إنسانيّة عميقة المغزى بأسلوب بليغ وفي مشهد يتفوق على فنطازيا الحزب السياسي، والغوغالية المجانية، والدماغوجيا البالية..

البوعزيزي أولاً وأخيراً كان إنساناً يحترن في أعماقه تراثاً حضارياً من الكبرياء مداه ثلاثة آلاف سنة، كان شاباً مكافحاً منتمياً لإنسانيّته محتجاً لها ثمّة مشاعر الغضب لكرامته المهذورة أكثر من كونه فقيراً محبطاً وبائساً، وبحقوقه الناري الاحتجاجي أفضى لعبة الدعاية السياسيّة العقيمة، والصمت الاجتماعي، والتواطؤ الإعلامي في الداخل والخارج، وفتح باب الانتفاضة.. فحّر الحقيقة التي كُبت عقوداً من الزمان وسمح للشعب التونسي بأن يواجهها بعد طول هروب ومرارة استقالة، وكان الساعد الشبابي حامل لواء هذه المواجهة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال في ظلّ الحذر السليبي العربي، والرياء الأوروبي، والنفاق الأمريكي لكن رغم غطرسة ماكينة النظام الداخلي المستبد ورغم جميع أشكال المعوقات الخارجية



التونسي بمختلف أطرافه وقواه الحية، وصولاً إلى يوم الرابع عشر من شهر جانفي 2011 يوم سقوط السلطة وانتصار إرادة الشعب وكرامة الوطن وعظمة تونس.

إن انتفاضة الطائر الذي لا يموت إلا لينبث حياً ومن ورائه تبعث أسراب الأحرار ناشدة مستقبلاً أفضل تحتاج أولاً وأخيراً إلى وقفة تأملية من ناحية إنسانية متجردة من كل أشكال التوظيف والتوجيه.. طائر الفينيق الذي احترق ليستعيد كبريائه ويُعلي حقوق الإنسان في كل مكان وزمان سيظل يدعونا لتأمل الأطوار التي سبقت احترائه عسى نغبط اللثام عن أغوار الروح التونسية التي لا مثيل لها عندما تغضب لكرامتها قبل خبزها ويصبح غضبها وقوداً للثورة الحضارية الشريفة ومصدر إلهام للشعوب.

الكرامة الإنسانية بوضوح النهار في سوق من أسواق سيدي بوزيد. من هذا المنطلق الراض للمهانة استفاق الضمير الجماهيري التونسي ليستعيد كبريائه الفردي والجماعي فألحبت صحوته العارمة شوارع المدن والأرياف وظلت صرخاته على مدى سبعة وعشرين يوماً ترتفع من سقف المطالب الطامح وتقدم قرابين الشهداء حتى أطاحت بأعلى هرم في السلطة ومادت بنظامه الجائر.

التشريح الثقافي والسياسي المتخلف عن ركب الثورة التونسية وعن حُماها الشرفاء سيظل متأخراً وظلماً للبوعزيزي ولشهداء تونس ولشعبها المنتفض ما لم يتلازم ويتزامن مع تشريح إنساني ينطلق من لحظة غضب البوعزيزي يوم السابع عشر من شهر ديسمبر 2010 مروراً بتعاطف و تضامن المجتمع

صدر أخيراً عن دار سنابل للنشر ببلدية مجموعة من الكتب القيمة منها: "لحب أن يصبح أنفي" "بلبل غني" للشاعر صالح الطرابلسي. "المفترق قراءة تطبيقية لقانون التعويض عن الأضرار اللاحقة بالأشخاص في مادة حوادث المرور" القاضي جمال الخشناري. "ذاكرة الأيام" للروائية نعيمة الوسلاتي. "من زحى ذاكرة مثقوبة" للشاعر الذهبي بلقاسم. "أمير في الغابة" قصة للأطفال للكاتب سالم حمزة. "آخر المطر" الوثبة البيضاء" للشاعر عمر سبيكة. "لقاء القهد والشفق" سلسلة رحيق القصص لمحمد الرزقي

آخر

الإصدارات



## "إنسانية من كبريت"

بقلم : حنان الوحيشي

الخضراء بشباها وبالعشر مليون تعلم  
الشعوب... درس الحرية ودرس الإرادة فالحرية  
إذا إرادة شعوب وأي القاسم الشابي علم  
الدرس للعالم أما البوعزيزي فإنه بشر تحول إلى  
إنسانية من كبريت أشعل شرارة الثورة بعمره  
وأحلامه وشبابه وحرقة أهله لكنه سجل اسم  
تونس في التاريخ، إن ثورة الشباب نبعت من  
الشباب وميحيها الشباب بوعيه وذكائه  
وحكمته...

من حق البوعزيزي الذي أكتب عليه  
وكأنه لم يمض لأنه سيبقى حيا بيننا نتنفسه كلما  
استنشقتنا أكسجين الحرية وسيكون حاضرا مع  
رفرفة علم هذا الوطن الذي يرفرف فخرا بأبنائه  
الذي ضحوا بحياتهم من أجل الحرية ومن أجل  
تطهير تراب هذا الوطن من دناسة واستبداد  
العائلة الحاكمة، إذا من حق هؤلاء أن تكون  
انفعالنا وتقييما لعمل الحكومة الانتقالية بكل  
وعى ورسالة ومنطق ويجب أن نكون  
موضوعيين...

من أروع ما عشته وما سأعيشه أني عشت  
حيثيات الثورة المجيدة ثورة الشباب الذي اقتلع  
الظلم والطاغوت من جذوره وقّلع برائثه التي  
فتكت بحريتنا وإنسانيتنا أنا لا أكتب حتى  
أصف فعاليات وحيثيات الثورة فأمام ثورتنا  
تموت الكلمات فهي تتحدث عن نفسها لكنني  
سأركز على مستقبل هذه الثورة التي يتربص بها  
حسادنا داخليا وهم بقايا النظام السابق وطبعا  
هناك متربصين من الخارج لا يخدم مصالحهم أن  
تكون تونس حرة وتكون شرارة الثورات في  
المنطقة العربية لذلك فستكون كلماتي رسالة إلى  
بني وطني شبابا وشيبا وكهولا وأطفالا بأن  
نحافظ على هذه الثورة بوعينا الذي أهر كل  
العالم وأن نحترم المراحل التي يجب أن تمر بها  
المرحلة الانتقالية وأن نغير ونرفض ونغير بمواقف  
حازمة دون أحداث أي شغب يستغله الرأي  
 العام الدولي لإفشال ثورتنا وإحباط الثورة  
المصرية التي كنا نحن شعلتها فالخضارة قرطاجنة  
تعلم الدرس للحضارة الفرعونية وتونس

بمقوق هذا الشعب الذي يدرك ماله وما عليه.  
 إن شاء الله ستكون تونس الخضراء مفعرة  
 لنا ولكل الشعوب العربية وكل الإنسانية المومنة  
 أن إنسانية الإنسان تكمن في كرامته التي لا  
 تتحقق إلا بحريته...

إذا نحن الآن شعب الحرية تسري في شربانه  
 تنبض بها قلوبنا فليعلم أن نتكاتف ونتماسك  
 ونكون يدا واحدة وموقفا واحدا لنحافظ على  
 ثورتنا ولا نجهض بسبب المناوئين بقايا المليشيا  
 أو الأنانيين المستبدين من القوضى وتزعجهم  
 الثورة فلنطلب العلم ونعمل ونحمي مؤسساتنا  
 وفي نفس الوقت نكون يقظين اليقظة الثامة حتي  
 نمنع كل متطفل ومتسلق يريد الركوب على  
 الثورة لتحقيق مصالح نخدم البعض ولا نحقق ما  
 يخدم الكل وينمي هذا الشعب وينقذه من  
 الخصاصة والظلم والقهر...

القهر الذي أشعل البوعزيزي من الداخل  
 فأحرق نفسه فداء لهذا الشباب... من أجل أن  
 يعيش هذا الشباب في عدل وكرامة.  
 نحن شعب الكرامة... شعب الحرية... شعب  
 الإرادة... نحن ثورة الإنسانية... فالبوعزيزي  
 بلغ للعالم رسالة عنوانها: "إنسانية من كبريت".

ثم علينا أن نراقب، نقيم، نسأل دون عنف أو  
 تمهيش لإطارات هم أبناء هذا الوطن عادوا من  
 بلاد الغرب ليلخدموا هذا الوطن ويساعدوا على  
 مرور الفترة الانتقالية بسلام وأمان وشفافية  
 ووضوح.

تونس ستبقى درة بشبابها وستبقى حرة  
 بشبابها... فنحن الآن نقطة اهتمام شعوب العالم  
 فهذا الشعب أهر القارة الأوروبية وأهر الرأي  
 العام الأمريكي فالثورة الفرنسية كانت النموذج  
 ثورة الشباب التونسي صنعت المعجزة ففي زمن  
 وجيز لم يتجاوز الشهر... في هذا الزمن  
 القياسي حدث ما أدهش الإعلام والأقلام... لا  
 لم تكن مجرد أحلام بل هرب المستبد الطاغوي  
 ونزل بعده الغيث النافع حت أن أرضنا  
 تطهرت من ظلمه ودناسة عائلته...

إذا الكل يتساءل أما بعد ؟؟

الإجابة بسيطة عن هذا السؤال فالمستقبل  
 سيكون دربا من الحرية والعدالة وشعب يطالب  
 بالحرية قبل الحزب هو شعب لا تخشى على  
 مستقبله لأنه قادر أن يمسك زمام الأمور فبعد  
 الثورة أي تونسي سيشترك في الحكومة. أو  
 يشغل أي منصب إداري حساس أو سياسي أو  
 برلماني لن يتحرأ على الاستهزاء والتلاعب

## شكرا للزّين ولليلاه

بقلم : د. علي بن غربال

تحية لـ "مجلة الإتحاف" بمناسبة إصدار عددها  
الحادي عشر بعد المائتين).

شهدت أيام 26 جانفي في الثمانينات من  
القرن العشرين أحداثا جلييلة ومن النوادر أن  
الفنان الساحر "لمين

النهدي" كان يرمز بقوله:  
"في الدقيقة 26 من  
الشوط الثاني صَفَر  
الحكم" إلى أيام 26  
جانفي الأولى والثانية.  
وما صندوق 26/26



الذي فتحه "الزّين صناديق عفوا العابدين" إلا  
صدفة من أصداف القُدَر.. غير أن الذي وقع  
يوم 14 جانفي 2011 فاق كل التوقعات إذ  
يعتبر حقا أول شرارة لثورة عربية شاملة تشبه  
الثورة الفرنسية سنة 1789 والتي ولّدت كلمة  
إرهابي بالمفهوم السياسي.

شكرا وألف شكر... وما يحبس واد  
الشكر أن يترقّقا.. وما يمنع أبواق الشكر أن  
تصدحا.. لم لا والشكر نعمة من عنده وهو  
العزير القدير... بعد زحرف من القول وسوء  
في التدبير؟..

أبدأ بالشكر من حيث  
انتهى به العدد الأخير من "مجلة  
الإتحاف" وهو عدد 210.  
ورد في الصفحة الأولى منه  
ذكر الحكمة التي تقول: "من  
كانت بدايته محرقة كانت

نهايته مشرقة". فهمت منها حسب رأيي  
المناضع أن كل نهاية هي نتيجة حتمية لكل  
بداية وأن في حكم الله أية لكل ظالم نهاية.  
(وللتذكير فأنا أيضا غرفت من ماء واد الشكر  
وما زلت أتلذذ طعمه ولم يخالطه ندم. ذلك أنني  
نظمت كلمات لطيفة وضعتها في سلة خفيفة

كنت أقول لأصدقائي مازحا: "إن ذبح طاغوت وملوك العرب سوف يقع بعد وفاتي بـ 11

سنة إذ كنت أشبه نفسي بـ

"روسو" في أفكاره لا في

زخارف أقواله. وقد كشف

14 جانفي "زين العابدين" لا

كما فهمه الرائد "عبد السلام

جلود" الثاني بعد القذافي في

السلطة في تصريحه الأول

بتونس أوائل عهد "بن علي" إذ قال حرفيا وهو

يتكلم عن "الزين": "هذا رجل ثوري ستكتشفه

الأيام". لكن المثل التونسي يقول: "اللي يحسب

وحدو يفضل له".

منذ ما يزيد عن عشرة سنوات قلت لأحد

أصدقائي ونحن نستمتع إلى الفنانة "صليحة" في

أغنية "يا زين الصحراء ومهجتها.. يرتع فيها

غزالها.. سيأتي يوم نستحسن فيه أغنية

"صليحة": "وين رحلوا بيك يا زين الصافي".

فقال لي أخي الأكبر ألا تعرف من كان معنا إنه

رئيس أو عضو في شعبة حمام الأنف. ثم إني

أعدت ذلك القول بحضور "عمدة" في "المزرة

السادس" وكنت أجد عند السامعين حسن

القبول لأن الظاهر والباطن كانا متناطحين



متردة وقد قال قبيل تعيينه له: "والله يا مساترية

قوة انصيب لكم واحد يطلعكم بلعان" وإنا اليوم

نعيش في ظروف أمنية ماثلة لتلك الفترة "ربي

يستر" من صعود "نابوليون" ثان على حصان

أسود يجر "حدايد وشكاير".

حتى يكون النقد موضوعيا للسائل أن يسأل:

"لكن لماذا الشكر لـ "بن علي وللبلاد"؟.. نعم

وجب علينا الشكر لكليهما. فقد أوصلا

الشعب إلى درجة من القهر والاستبداد بأي

القهر والاستبداد التزول تحتها أي إلى ما تحت

"سدرة المنتهى" على براق ملك يسوقه شيطان

حتى منبت الياستمين ومطلع الحرية.. ثم إن

لـ"للي" الفضل الأكبر ولها النصيب الأوفر في

الشكر.

## نفق المنيرة

### بين التسجيل والسيرة

بقلم : د. محمد حجاج

ما هو تسجيلي وما هو متخيل يبقى من الصعوبة بمكان، ذلك أن الأجزاء المتخيلة قد لا تكون كذلك تماماً، والأرجح أن لها جذورا في عالم الواقع. فالسارد يتكلم عن فترة عاشها، وشخصين بالتحديد ويعرض لأحداث شارك فيها، بل هو يلجأ في كثير من الأحيان إلى تسجيل ما يقع فيها سَمَام "كراسة اليوميات". ونحن في الحقيقة لا نستطيع أن نغفل أثناء قراءتنا للرواية مقولة الكاتب الإنجليزي "سومرست سوم": "لا أحد يمكنه خلق شخصية من الملاحظة فقط. ولكي تبدو الشخصية حية، لا بد أن تكون بدرجة ما مماثلة لشخصية الكاتب".

وعلى ذلك يمكن اعتبار رواية "نفق المنيرة" تأرجح بين كونها رواية "تسجيلية" في بعض أجزائها، وسيرة ذاتية في أجزاء أخرى منها.

تحفل "نفق المنيرة" بالعديد من

هي الرواية الثانية للقصص والروائي "حسني سيد ليب" بعد "دموع إيزيس"، إضافة إلى مجموعاته القصصية السبع. وتنتمي الرواية إلى النهج الواقعي في الكتابة، وتدور أحداثها في مدينة إمبابه في ستينيات القرن الماضي، وفي إطار سرده الروائي يعرض الكاتب لبعض الوقائع والأحداث (التاريخية) مثل : تطور منطقة إمبابه مكانيا وزمانيا /عودة الزعيم سعد زغلول من أوروبا سنة 1921 واستقبال المصريين له/حادثة غرق "التروولي باس" المنحه إلى إمبابه في بحر النيل وبه كثير من ساكني إمبابه سنة 1965/عزل الشيخ أحمد حسن الباقوري من مناصبه وتحديد إقامته سنة 1959/ إعدام المفكر الإسلامي سيد قطب سنة 1966. وقد عولجت هذه الوقائع معالجة تسجيلية تستند إلى مصادر علمية، وهي على أية حال تشغل مساحة ضئيلة، فإن محاولة وضع حد فاصل بين

ومترددا في علاقاته مع نفسه ومع الآخرين، فهو مثلا حين يذهب للفرجة على مفاتن الرقص الشرقي من الراقصة "توحة" في مهرجان مولد سيدي إسماعيل الإيمابي، فإنه يقدم رجلا ويؤخر الأخرى، أما في الأفراح التي كان يرتادها، فإنه كان يلجأ إلى أن يمس نفسه وسط الزحام للاستمتاع برؤية حركات الراقصات. أما فيما يتعلق بالجانب العاطفي عند فتحه فإنه كان كشاب تواقا للحب، وكان يتوسم في وجه كل فتاة يراها، حتى إنه عرف عنه بين رفاقه، أنه "بكل فتاة معجب"، وقد أحب ليلي ابنة الجيران لكنه فشل -رغم أن الفرصة كانت سانحة له- في أن يطور علاقته بها، ويحولها إلى حب متبادل بينهما، وكره أن يكون لجارهم عثمان علاقة بليلى، فلجأ إلى حيلة شائنة من أجل أن يوقع بينهما، غلا أن ذلك أفضى في نهاية الأمر إلى رحيل أسرة ليلي من إمبابة كلها، وتدمير المعبد على رؤوس كل من فيه. كما أن فتحه وقع في هوى سعاد أخت صديقه مصطفى من النظرة الأولى، غير أنها غرقت في حادثة "الترولي باس" الذي سقط في نهر النيل. أما مارسيل التي تعرف عليها في دروس اللغة الفرنسية، ثم التحقت معه بنفس كلية الهندسة، مما أتاح للعلاقة بينهما أن

الشخصيات، بعضها فاعل ومؤثر، والحديث عن كل هذه الشخصيات يحتاج إلى صفحات كثيرة. ولذلك فإننا سوف نقصر حديثنا هنا على شخصيتين رئيسيتين هما عم حمزة وفتحى، والثاني طالب بمدرسة إمبابة الثانوية، بالصف الثالث، ويطمح إلى الحصول على مجموع درجات يؤهله لدخول كلية الهندسة، بعد أن فشل في تحقيق ذلك في العام الدراسي السابق. ينتمي فتحى إلى أسرة فقيرة، فوالده موظف بسيط في إحدى المصالح الحكومية، ويدير أمر حياته ومعيشة أسرته بصعوبة بالغة. فقد استيقظ فتحى من إغفاء لماربة ذات يوم على صوت أمه وهي تعاتب أباه، على عودته من حي "السيدة زينب" سيرا على قدميه على بعد المسافة بين ذلك الحي وإمبابة، من أجل أن يوفر قرشا واحدا هو ثمن تذكرة الأتوبيس.. كما أن فتحى لا يمكنه أن ينسى أنه حين قرر أن يعيد دراسة الصف الثالث، فإن والده المكافح قام ببيع طاقم الصالون الخاص بيته ليدير لابنه رسوم إعادة القيد بالمدرسة، ولم يكن فتحى في غيبة عن الوضع المادي المتأزم لأسرته، بل يعيه تماما، ويحتل منه بؤرة الشعور، مما أثر على شخصيته إلى حد بعيد، وجعل منه إنسانا متحفظا محاذرا

معجب بعبد الناصر، ويحفظ بعض كلماته. وقد تسلسل مع غيره من المتطوعين عبر بحيرة المولة إلى "بور سعيد" للاشتراك في أعمال المقاومة ضد العدوان الثلاثي سنة 1956، وأصيب برصاصة في فخذه. يرفع حمزة "طرف الجلباب ليعرض أثر الجرح كلما استدعت المناسبة أن يحكي وقائعها، أو أنه يقحمها بلا مناسبة لكل من يأنس منه أذنا منصتة". ولحمزة مواقف مشهودة في مشاركة ساكني إمبابة فيما يمر بهم من أحداث. وهو متعاطف دائما مع غيره من الكادحين الفقراء.

وحمة أيضا مهموم بالنفق. يطارده على فترات من الرواية حلم مزعج عن تشقق النفق وتصدعه. وتتوالى الأحداث، وتشعر حميدة بأعراض الحمل بعد طول انتظار، وتستبشر الأسرة بهذا الحدث، لكن حميدة تموت بحمي النفاس بعد أن تضع مولودا ذكرا. كأن النكبة لم تكف حمزة، فالحلم المزعج لا يزال يطارده وكأنه يبحث عن حدث آخر يفسره، ولعله وجد ضالته أخيرا في تلك النكبة التي أملت بمصر بل بالمنطقة العربية كلها، متمثلة في هزيمة يونيو 68.

تتطور إلى ما يمكن أن يكون حبا متبادلا بينهما، لكن هذه العلاقة كان محكوما عليها بالفشل حيث تدخل الأهل - وخاصة أسرة مارسيل - لإيقافها بل وإلغائها، بسبب الاختلاف في الدين بين مارسيل وبينه.

تبدأ الرواية بعم حمزة وقد أهاجته الذكريات وهو يسترجع أيام العمر الذي ولى، بعد أن أدركته الستون. تتحدد شخصية حمزة أيضا بطول الرواية، وهو أيضا كادح فقير، يمتلك مسكنا متواضعا ومقهى صغيرا "غرزة" ملاصقين لنفق المنيرة، والذي هو حقيقته جسر أقيم فوق طريق لتعبر عليه القطارات بين القاهرة وعيد مصر، وفي ضمير حمزة أنه يرتبط تاريخيا بذلك النفق، ذلك أن والد جده "رمضان" قد شارك - فيما يروي - في إنشاء الخط الحديدي فوق النفق. كما أنه مرتبط به وجدانيا حتى أنه يتمثله شريانا في قلبه. وحمزة يعيش في مسكنه وحيدا، كما أنه ليس له من الأبناء إلا "حميدة"، وهي متزوجة من "جابر" الذي يمتلك عربية كارو، يخرج بها في البكور يوميا هو وحميدة إلى سوق "روض الفرج"، ليحلبا بعض الخضر التي يبيعانها في سوق إمبابة، وحميدة لم تنجب حتى الآن. كما يتمتع حمزة بحس وطني عال، فهو



## أديب لـ ... ثم أزهر الحزن

بقلم : ضياء قصبجي

حلب (سورية)

أعمل في دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل،  
التي يعمل فيها الأديب فاضل السباعي في  
حلب.. أذكر أنني كنت وجلة من دخول  
غرفته، والوقوف أمام مكتبه لأخذ رأيه فيما

سبق أن أعطيته إياه من قصص قصيرة، كان  
ردّه، أن أهداني مجموعته القصصية (ضيف من  
الشرق) وكتب الإهداء جملة لم أنسها حتى الآن  
(إلى الأديبة التي تعد بالعطاء) 1962، حملت  
الكتاب بفرح عميق مصدرة أنّ أديبا مهماً  
أطلق عليّ لقب أديبة "وهو اللقب الذي  
أحبه".. وحين أعلنت الدائرة التي نعمل بها، عن  
مسابقة للقصة القصيرة، اشتركت بها، وكتبت  
قصة من مخيلتي بعيدة جداً عن حياقي وواقعي،  
ونلت جائزة (أحسن قصة لعيد الأم).. وفي  
ذلك الاحتفال البهيج، الذي رافقتني فيه والدتي  
أمدّ الله في عمرها، نودي إليّ فصعدت المنصة  
مع الاضطراب والفرح، ووقفت ثانية أمام

في أبواب حلب العتيقة، يسكن التاريخ،  
وتسامق أشجار النارج.. في نوافذ أفقيتها  
تستقرّ شربات الفخار، والجرار الصامته..  
وتزهر أصص العظرية واللكية.

أذكر حلب القلعة فتشتعل الفوانيس، وتقدّم  
الشموع، وتهدل الحمام على الحيطان  
الآجرية.. حلب الأدب وطفولي فيها، وأول  
كلمة كتبتها من وحي حي لها.. وتتوارد لحياي  
الحكايات القديمة، وبداياتي الأدبية.. ترى لو لم  
أكن مولودة في حارة (الجلوم) من أين كنت  
استمدّ كتاباتي وأفكاري...؟

ولولا تشجيع أدباء حلب لي، كيف استمرّ  
في الكتابة..؟

من عمق الماضي، تعود لي صورة لقايني مع  
الأديب فاضل السباعي، ذلك النسر الذي يرتفع  
إلى القمم، رغم الجراح والسهام المتجه إليه.

"كنت يافعة حين هيأت لي المصادفة أن

وإلى الجزائر (سطيف)، وعملت كمدرّسة للغة العربية في مرحلة تعريب الجزائر .. ثم عدت إلى حلب ووظفت، وكانت انطلاقتي الأدبية بعد زواجي، فطبعت أول مجموعة قصصية لي، كلّفنا آنذ 900 ل.س.. عام 1972، خوّلني للانتساب إلى إتحاد الكتاب العرب.. وبدأت أحضر مؤتمره السنوي.. الذي جمعني بعد فراق طويل مع الأديب فاضل السباعي.. هنأني بزواجي.. ودعانا أنا وموفق إلى وليمة غداء في بيته، صنعت لنا، زوجته الحلبية التي تحب الطهي وفن الزخرفة.. مائدة مبهرة وحافلة من ألذ الطعام، وهي أخت الرسّام الكبير المرحوم (لوي كيالي).

وفي مجموعتي القصصية الثالثة عام 1981، جمعت آراء الكتاب من سوريا ومصر وتونس والكويت، وكانت كلمته بعد كلمة الأديب الكبير نجيب محفوظ، كتب:

"إنّ قصصك يا ضياء هي قصص جيّدة، لقد كنت فيها مثقفة وذكية ومرحة، لقد استطعت أن تبني مستلهمّة الواقع الاجتماعي وأعماق النفس البشرية والأحلام كما يخيّل إلي -علما من الرّوى كان يبعث فينا الدهشة حيناً والإعجاب والفرح والغضب أحياناً، وكان علما

الأديب الشاب فاضل السباعي، المسؤول عن المسابقة، فصافحي وقدم لي مجموعة كتب من روائع الآداب الأجنبية.. وظرفا فيه مبلغ 25 ليرة سورية وذلك بتاريخ 1963/3/31، ومازلت أحتفظ بالكتب التي قرأنا واستفدت منها، وبنسخة من تلك الصورة التي تجمعا وهو يسلمني الجائزة... التي كانت بمثابة إقلاع من مطار الأدب.. أمّا المبلغ المادي فلقد نسيت ماذا فعلت به.. هل دفعته آجارا لبيتنا..؟ لكنّ شريط الذكرى يتوقّف، إذ ما كدت آنس هذا الروائي.. حتى غادر حلب متجها إلى دمشق. وذات مرة كنت أقف أمام مكتبة (الفرابي)

القرية من بيتي في شارع اسکندرون لأستأجر رواية أفروها ثم أعيدها لأخذ غيرها، كما اعتدت أن أفعل دائما، وكما كانت العادة في ذلك الزمان، وإذا برواية تجذب نظري عنوانها (ثمّ أزهّر الحزن) للأديب فاضل السباعي تنصّدر الواجهة المثلثة بالكتب، أخذتها عشت عوالمها، استمتعت بقراءتها، وبلغتها التي تشبه حبات اللؤلؤ المضمونة في خيط متين، أو زهرات الياسمين في عقد عطر.

مضت سنوات من البعد، انتسبت إلى كتيّة الحقوق، وسافرت إلى السعودية (المحفوظ) ..

فيتعلّم من هذه اللغة العربية النادرة، التي تصف فكائنها آلة تصوير، وتستعمل العامية أحيانا بشكل مرح مبسّط، فتبدو في غاية الإمتاع، وتكتب عن الأحزان بأسلوب عذب، فتبدو كالحسنة التي يزيدها لبس السواد سحرا وهاء".

وأذكر أنني كتبت نقدا رائعا ومطولاً عن روايته بعنوان (الإبحار في رواية ثم أزهر الحزن)، ونشرته في مجلة المعرفة 1994/4/10. وكان قد اشترى (الحاسوب) وبات يبهري بأنافة كتاباته.. ولقد حظي هذا المقال، بطبعه لديه.. من ناحية أخرى بدأت أفكر بشراء (الحاسوب) والتعلم عليه.. فلقد قال لي مرّة

"لا يجوز أن تكون رسائل أدبية مثلك يمثل هذا الخط، وهذه السرعة.

مقطع من مقدمة المقال:

"لعلّ الكتابة عن الروائي السوري فاضل السباعي، تشبه البحث عن زهرة بريّة نادرة الوجود، كلّما قست عليها شمّس الحياة توغّلت هذه القسوة في نسغها لتصبغ جذورها بشتّى ألوان الإبداع، هذه الزهرة البريّة التي تبدو شرسة، تفيض حنانا وعذوبة ورونقا.. وإذا كانت أوراقها تبدو بنعومة المخمل الثمين لليد

مقنعا فضلا عن طرافته وإمتاعه" ثم هاهو التاريخ يعيد نفسه، فيهديني نسخة من روايته (ثم أزهر الحزن) بطبعتها الجديدة الأنيقة، ولقد كتب الإهداء عليها ما أفرحني قال:

"إلى الأديبة، قاصّة حلب الأولى، ضياء قصبي.. إعجابي ومدني الدائمة،

1990/11/25 وبعد سنوات أهداني نسخة ثانية من ذات الرواية بعد أن جمع فيها آراء النقاد، وكتب: "إلى الأديبة المبدعة ضياء قصبي..

طبعة جديدة تزئنها شهادة منك، وأجلّ ثمنياي 1994/4/11 كتبت له: "وافضل السباعي، في أدبه يمدح من حبه للوطن، وهو يتحسّن جراحاته، وما ذلك إلا ليشعّ نور أدبه ثمّني المطالعة، خاصّة الجيل الجديد التواق لتذوق أدب جميل ومفيد معا، مثل ما ضمّته (ثم أزهر الحزن) فيتعلّم من هذه اللغة العربية النادرة، التي تصف فكائنها آلة تصوير، وتستعمل العامية أحيانا بشكل مرح مبسّط، فتبدو في غاية الإمتاع، وتكتب عن الأحزان بأسلوب عذب، فتبدو كالحسنة التي يزيدها لبس السواد سحرا وهاء".

وأذكر أنني كتبت نقدا رائعا ومطولاً عن روايته بعنوان (الإبحار في رواية ثم أزهر الحزن)،

حرق بالية وملونة بساطا شرقيا ساحرا،  
ويسألني عن قصصي الوطنية غير مصدق.

هل عנית بكتابك الرمزية ما فهمناه منها.. ؟  
!! أقول له: طبعاً.. فيرفع حاجبيه دهشة.

استمرت المراسلة بيننا.. عنوانه/دمشق الجسر  
الأبيض، شارع نوري باشا/وكنا نزوره في بيته  
المفتوح لكل أدباء حلب.. أحيانا أحمل له زهرا  
من أزهار دمشق.

في الشتاء.. يجلس في تلك الصالة الواسعة،  
المزخرفة بالكتب، والتحف، والصدديات  
الجمالية، والستائر والأقمشة المطرزة، ولوحة  
كبيرة لحسناء من رسم لوي كيالي تنصت  
الصالة... والمدفأة تفرق بنارها، فتشيع الدفء

في المكان، وهو يجلس على كرسيه العالي،  
منتصب الظهر، يضع الشال الصوفي على  
كتفيه، ويتحدث بالأدب والسياسة، ولا يخلو  
حديثه الشيق من روح المرح.. وكان بفراسته  
القوية، ومقدرته على قراءة النفوس، يلاحظ  
شرودي أحيانا عن الحديث" وهي عادة لا  
أستطيع التخلص منها"... فيسألني بشكل  
مباغت ما رأيك بما أقول..؟ فاضطرب،  
وأحاول أن أقول آخر فكرة سمعتها منه،  
فيضحك ويقول: لا هذه الكلمات قلتها منذ

الريقة الحانية.. فلها تتحول إلى أشواك تجرح  
اليد التي تود أن تقطفها لتخفي جمالها".

ولا بد من القول، أن الأديب فاضل عاني  
كثيرا من نكران وسائل الإعلام لأدبه، لمجرد أن  
شكله وكتيبته، واعتزازه بنفسه، يوحي بأنه من  
الطبقة (البرجوازية) التي كانت ذات ورقة  
محروقة في السبعينات. ولم يكن تشجيعه لي فقط  
في بداياتي، بل في كل مراحل حياتي الأدبية.."

فالأديب لا يشبه الصاروخ المنطلق في الفضاء  
إلى هدفه دون عثرات.. بل إنه يمشي خطوة  
خطوة، بتودة، ناظرا إلى موطئ قدمه فوق أرض  
مزروعة بالشوك والفل والعنبر، ويبقى بحساسيته  
المفرطة، يتلوق حلو الكلام ومرارته".

على أن الأمور لا تسير على نفس الوتيرة من  
الصفاء، فمرة اغتظت منه وعابته، لأنه كتب  
عن قاص كان قد انتقدي بشدة.. فقال مبررا  
وضاحكا : أنا أكتب عن الذين لا يعجبني  
أدبهم.

كان معجبا بكتاباتي، ويدي استغرابه من تناول  
بعض المواضيع البالغة الدقة والبساطة، ويسألني:  
كيف تستطيعين أن تكتبي أي شيء يخطر على  
بالك، وتجعلي منه قصة.. ؟ ! أجيبه، أنا كما  
قال عني أحد النقاد: كالعجوز التي تصنع من

جلس دقاتي.

والرواية في اتحاد الكتاب العرب عام 77/76،

والمرّة الثانية عام 88/87 كنا بعد الاجتماع

نصعد مجموعة إلى مطعم الشرفة نختسي القهوة

(ندردش) أعذب الأحاديث التي لا تخلو من

المرح.. وكنت أجدّه، مثاليًا في التعامل مع

الآخرين، وإذا كان مسؤولاً عن عمل ما، يبذل

الجهد الكبير لإنجاحه ويتقنه إلى أبعد حدّ

يمكن.. ولا ينسى أحدنا العدد الخاص بالقصة

القصيرة، الذي ساعدته في إعداده أمانة سرّ

الجمعية القاصّة ملاحه الخاني.. كان عدداً راعياً،

ومطلوباً، ولا مثيل له.. ولقد طلب مني ثلاث

قصص كنت قد كتبتها عن المرأة، وهنا حصل

جدال بيني وبينه.. لم عن المرأة؟ ولم ثلاثة

قصص لا واحدة؟.. ويتحمّل احتجابي غير

المبرّر، وأؤخّر إرسالها، فينتظرني ويقنعني، حتى

أوافق وأرسل له ما أراد.

ولقد أردت أن تذكره حلب بالعرفان والتقدير،

فسعيت إلى إقامة حفلة تكريم له في ندوة

الشهباء، بمعونة الد.د. إحسان الشيط وطلبت

من الناقد نضال الصالح، أن يكتب بحثاً عن

روايته (ثم أزهر الحزن) وشاركت أنا أيضاً بمقال

تناولت فيه موضوع (الحب في الرواية)،

وكذلك السيدة ناديا سلطان، ابنة القاص

ثم سرعان ما أحسست بصداقته الجميمة

وزال ذلك الحجاب الذي كان يشعرني بالمهاية،

وأصبحت وإياه كأعزّ صديقين، بل بدأت

أختلف معه، مثلاً إذا صادف أن أبدى رايه

بالرئيس جمال عبد الناصر، ففي ذلك الزمان

كنت أنا (ناصرية) وهو غير ذلك، لكن الأمر

يزول وتبقى معزّي له.. وكان أيضاً كلما جاء

إلى موطنه حلب، أتصل بنا، ودعوانه للغداء في

بيتنا القديم (الأنصاري).. أو لسهرة معنا تكون

ممتعة جدّاً، في بيتنا الجديد، وكان يشجّع ابني

إيفار على الكتابة أيضاً بعد أن تقرأ له قصصها

القصيرة.. يقول لها :

كما شجعت أمك أشجعتك أنت الآن.

في الصيف.. كنا نزوره أيضاً في حديثه

المكشوفة للسماء، يجلس على الأريكة، تحت

الدوالي، وأشجار الكباد بشمارها الصفراء

العطرة، نختسي القهوة حول البركة، وعلى

حافتها أصوص الزهر والنافورة تتدفّق بالماء

العذب، فنسمع صوتها هادئاً كمعزوفة، وكثيراً

ما كنا نلتقي في بيته بالأدباء الأصدقاء مثل سعد

صائب، ونهاد رضا، وسعيد قندقجي وغيرهم.

وحين استلم منصب مقرر جمعية القصّة

القصص الخمس والأربعين، فصولا في رواية من روايات الحياة".

على أن براعته في كتابة الرواية، لا تقل عن براعته في كتابة القصة القصيرة، وأدب الرحلات أيضا، كما أن كتابته القصص التاريخية واهتمامه بأدب الأندلس يلفت الانتباه.. على أية حال كل الكُتب التي ألفها، أعطاها من أرقه وجهده الشيء الكثير.. هي ليست فقط أنيقة المظهر، وخالية من الأخطاء.. (مراعيا فيها الفواصل بين الجمل، وتشكيل الأحرف التي تحتاج إلى تشكيل).. بل إنها قيمة وفنية وفيها أسس القصص.. قبل عن مجموعته (حياة جديدة).

(في هذه القصص ظاهرة لا يخطئها القارئ هذا المتزع الأخلاقي المثالي، المقرون غالبا بروح من التفاؤل والإيمان بالخير.. والاهتمام بالبيئة الشعبية التي نشأ فيها، واقتباسه منها قصصا تمتع وتطرف، وفي بعض القصص لون من النقد الاجتماعي الساخر).

مقطع من قصة (زقاق المدار) ص 85 في المجموعة.

"واستحضر الحاج في ذهنه صورة الصبية التي في الدار:

المعروف مظفر سلطان، وحضرها بنفسه.. وكانت أمسية مميزة.. في التسعينات.

وفي عام 1995 اختارت الندوة النسائية في دمشق ممثلة برأي الأدبية الكبيرة (الفت الأدلي) كتابا لي لتطبعه على حسابها، و(التمويل من امرأة مثقفة وثريّة تعشق الأدب وتجد لأموالها الطريقة المثالية لصرفها)، في دار إشبيلية تحديدا.. قلت إذن لقد واتني الفرصة لأطبع قصصي القصيرة جدا التي أكتب مثيلا لها منذ السبعينات، وإن كنت قد نشرتها في الصحف والمجلات السورية والمصرية، إلا أن كتابا لم يصدر لي بها، ولا أعتقد أن أحدا يوافق على نشر 45 ق.ق.ج بأرقامها.. فلم يكن معروفا هذا النوع من القصص "إلا فيما ندر" ولكن بعنوانين لا بأرقام.

وقدّمت المجموعة للأديب فاضل السباعي فأعجبته وكتب على غلافها الأنيق، كلمة بعض ما قال فيها: "هذه ال ق.ق.ج هي بالأحرى قصائد قصصية قد استلهمتها المؤلفة، على مدى سنين وهي في موطنها حلب الشهباء من وجدانها، المفعم بالتجارب الثرة، الحافل بالملاحظات الناقدة، وقد آثرت ألا تخصّ كل قصة باسم، رغبة منها في أن تجعل، من هذه

- يعني .. ألم يسبق لك أن تزوّجت؟  
 - بلى!  
 - وأين زوجتك إذن؟  
 - أعطيتني بنتاً، ثم أعطيتني عمرها  
 فازداد عجب الحاج المدارقي من منطق نزيل  
 الزقاق الجديد:  
 "أكانت زوجتك متعبة إلى هذا الحدّ، يا أبو  
 علي؟"  
 فانطلق أبو علي التونو يتحدث كاشفاً سرّ  
 نفسه:

"أنا يا حاج رجل" صاحب مزاج "تقفو نفسي،

بين الليلة والأخرى إلى "تعمير" مائدة في داري،

أدعو إليها الأصحاب والأحباب، وكانت

المرحومة -ساعها الله- بنت مشايخ، تأبى عليّ

هذا، وتشتر معي كي أفلح عمّا تسميه الكركافي

وسمّ الموت!!".

وفي قصّة أخرى.

"وانطلق من الزقاق، بعد لحظات" عبد

السميع"، بائع "المريسة" يدفع أمامه عربته

الصغيرة، ثم "محمد السواس" تعانق ظهره قربة

عامرة بالسوس، وهو يتلو بعض الأدعية  
 والأوراد التي تعود أن يتلوها كلّ صباح كي يمنّ  
 الله عليه بالرزق".

هو ذا الأديب الفاضل السباعي كما أعرفه،  
 إنه وإن ابتعد عن حلب مسقط رأسه.. بقي  
 على تواصل معها، ومع أدبائها الطيّبين.. الذين  
 يزورونه ويستمعون إلى حديثه، وذكرياته مع  
 حبيبه ومحاربه. أنه ممثلي بالقيم والأصالة،  
 والالتزام، والصبر والعمل الدؤوب.  
 من مؤلفاته أمدّ الله في عمره:

الروايات :

الظلم والبيع عام 1959

رياح كانون

المجموعات القصصية:

الانقسام في الأيام الصعبة

الألم على نار هادئة

آه يا وطني

وكتاب "أدب الأندلس"

## قراءة نقدية لطبوية الحرية في المجتمع الإسلامي التقليدي من كتاب عبد الله العروي: مفهوم الحرية

بقلم: د. الأسعد الدرويش.

الاصطلاحية باختلاف التنشئة الثقافية  
والحضارية التي ينتمي إليها.

أكد الغرب أن المدنية التي يعيشها لها  
أسبابها المفقودة في المجتمعات المتأخرة عنه  
وخاصة العربية والإسلامية، ورأى أن أساسها  
الحرية التي ينعم بها في كل أبعادها  
وبحالاتها، ونظرا للسيطرة الثقافية والتكنولوجية  
للغرب فإن الأحداث التي عاشها العالم في أواخر  
القرن الماضي وبدايات القرن الحالي طرحت من  
جديد النظر في أبعاد الحرية ودلالاتها، لأن  
الثابت من الممارسات أنه هناك بونا شاسعا بينا  
في الاتفاق بين الغرب والشرق، بالإضافة إلى أن  
سبل التلاقي والتعاقد بين الحضارات بات أيسر  
من ذي قبل نتيجة تطور وسائل الاتصال  
الحديثة، وهذا يفرض بشكل جدي توفّر أرضية

تعتبر الحرية إحدى المقومات الأساسية التي  
ترتبط بكيونة الإنسان، وتحدّد فاعليته وحدوى  
ممارساته، ولذلك علقا كل الأديان السماوية  
والقوانين الوضعية من المقدّسات التي تأتي  
إنسانية الإنسان التنازل عنها أو التقرّط فيها،  
ولا غرابة فيما ترويه سير التاريخ ووقائعه، وما  
نشاهده اليوم من صراعات بين الأفراد  
والمجتمعات والدول في الدفاع عن حرياتها، وإن  
اختلفت المسمّيات والشعارات.

الحرية غاية الإنسان في كل أبعاده  
الأنطولوجية والأنتروبولوجية، التي تحدّد بشكل  
أو بآخر نظرته لمفهومها وأبعادها، من هذا  
الاعتبار نجد التباين بين المجتمعات مشروعا حول  
مفهوم الحرية، باعتبار أن اللسان (اللغة) الذي  
يعبر به الإنسان يختلف في الدلالات



مكوّناته محاولا من خلال تركيبته الحضاريّة والثقافيّة استقراء مفهوم الحريةّ وتصوّرهم لها. يستهلّ عبد الله العروي الفصل بمحادثة تاريخيّة ينطلق منها لدراسة مفهوم الحريةّ، ممثّلت الحادثة في مطالبة سفراء الدول الأوروبيّة رؤساء الدول الإسلاميّة بمطالب تدور حول الحريةّ، وذلك نظرا لما كانت تربط الغرب بالمسلمين من علاقات تجاريّة واقتصاديّة. كانت مطالبهم تتمحور أساسا حول الحريةّ المدنيّة والدينيّة وحريةّ التعليم وحريةّ التنقّل للتجار، لكنّ الإشكال الذي ظهر أنّ زعماء المسلمين والفقهاء، لم يكونوا يدركون بالتدقيق معنى الحريةّ التي عنّاها الأوروبيون، والتي كانوا ينجيرون عنها كلّما سئلوا عن سرّ تقدّمهم بأنّها سبب رفّهم وتطوّرهم.

دلت ردود فعل رؤساء الدول الإسلاميّة والفقهاء، أنّ المسائل قد اختلطت عندهم حيث لم يدركوا المعنى الجديد لمفهوم الحريةّ، لأنّهم رأوها من إحداثات الغرب ومن وضع الزنادقة، إذ أنّها تستلزم إلغاء حقوق الله تعالى وحقوق الوالدين... في حين أنّ الحريةّ الشرعيّة هي التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وبينها رسول الله صلى الله عليه وسلّم وحرّرها الفقهاء

للتفاهم والتواصل الايجابي بينها، ومن أهمّها الاشتراك في قيم إنسانيّة عالميّة خالدة يجب أن تكون محلّ توافق فيما بينها.

الحريةّ إشكاليّة قديمة حديثة تناولها الفكر الإسلامي منذ نشأته وتعاظمت في عصور لاحقة، ولعلّ الأحداث الراهنة التي يعيشها العالم بأسره دفع العديد من المفكرين والباحثين إلى معالجتها من زواياها المتعدّدة ومنهم عبد الله العروي في كتابه « مفهوم الحرية ».

\* طبع المركز الثقافي العربي ط 4 1988م، الفصل الأوّل من الصفحة 11 إلى الصفحة 25.

#### — الحريةّ بين حقيقة اللفظ ولعبة المعنى:

يستوقفنا في البداية العنوان الذي آثر الكاتب اختياره، فمن خلاله نفهم طبيعة المسائل المثارة فيه. إنّ التساؤل عن مدلول الحريةّ في المجتمع الإسلامي يفترض لزاما طرفا آخر وهو المجتمع الغربي، وخلاصة الأمر أنّ العروي يتناول إشكاليّة البحث عن مفهوم للحريةّ إن وجد عند المسلمين أم لا كما هو عند الغرب من ناحية، ثمّ الخلط الذي كان متواجدا في نظرهم لها من ناحية أخرى. أمّا المجتمع الإسلامي التقليدي فيتناول فيه أبعاد

• معنى خلقي: و يعني الحسن والكرامة، وكان موجودا في الجاهلية.

• معنى قانوني: مستعمل في القرآن الكريم من تحرير رقبة مؤمنة، وفي كتب الفقه لا يقتل حرّ بعيد ويقتل به العبد.

• معنى اجتماعي: ما يجده عند المتأخرين، الحرّ هو المعفى من الضريبة.

• معنى صوفي: وهي الخروج عن رقّ الكائنات وهي على مراتب.

بعد عرضه لأنواع البعد اللغوي لمفهوم الحرية، استنتج فالدتين وهما:

-أولا أنّ الصيغة المألوفة وهي الصفة ومشتقاها -حرر- تحرير، المصدر الأصلي ويستعمل للتمييز بين من كان حرا من الولادة، وبين من كان عبدا ثم أعتق.

-ثانيا المعاني الأربعة في الجانب اللغوي تدور حول الفرد وعلاقته مع غيره. ثم لاحظ أنّ هذه المفاهيم تحيل على مجالين يعبران عن نشاط الإنسان:

• الفقه الذي يحدّد كيفية تعامل الإنسان مع الإنسان.

• الأخلاق التي تصف علاقة العقل بالنفس. من الأسباب التي دفعته إلى البحث في المجال اللغوي، موقف المستشرقين من المفهوم اللبرالي

في باب الحر.

هذا الاعتبار حاول التأكيد أنّ الطبيعة الثقافية للمجتمع العربي الإسلامي، وما يضمّه من مؤلّفين وأدباء وفقهاء، لم يكونوا يدركون من الحرية ما تفهمه أوروبا الليبرالية، الذي كان بديهيا لديهم، أمّا المسلمون فلم يتخلّوا مفهومها بدقّة، واستعملوها كترجمة اصطلاحية للكلمة الأوروبية (liberté).

دفعه هذا الموقف إلى البحث عن تأويل لكلمة الحرية، وتحقيقا لهذا المقصد ركّز على ثلاثة محاور كان المستشرقون من قبله قد تطرّقوا إليها، وهي:

1- هل الحرية في اللسان العربي الحديث لا تعدو أن تكون ترجمة اصطلاحية بدون أن يكون لها ارتباط بجذرها العربي؟

2- هل مفهوم الحرية المأخوذ من الثقافة الغربية، لا وجود له في الثقافة العربية الإسلامية ؟

3- ممارسة الحرية منعدمة في المجتمع الإسلامي التقليدي حيث لا يوجد المفهوم في الثقافة الإسلامية.

ينطلق العروى لمعالجة هذه الإشكاليات بالجانب اللغوي، ويقسّمه إلى أربعة أنواع:

من الأقلّ حرية إلى الأكثر قدرة على التصرف شرعاً، فالحرية في هذا المجتمع هي حكم شرعي، لكنّها في الآن ذاته إثبات لمدى قدرة الفرد على إعمال العقل في حياته، ويرى الفقيه أنّ هذا التطابق بين الشرع والعقل والحرية هو العدل الذي يقوم عليه الكون.

## 2 - الأخلاق: وتطرح فيه قضية الحرية من زاويتين:

- علاقة العقل بالنفس: تتعلق بسؤال، هل يستطيع العقل أن يتغلب على النفس و يغيّر ميولها الطبيعية؟  
- علاقة الإرادة الفردية بالمشيئة الإلهية: وأثيرت فيه مسألة الفعل الإلهي والفعل الإنساني.

يلاحظ العروي أنّ الإجابات وإن تعدّدت في هذه المسألة إلّا أنّه قد ساد عند أغلب المسلمين اتخاذ خطأ وسط عبّرت عنه المدرسة الأشعرية.

هذا العمل يكون قد أكمل الجانب اللغوي، واستنتج أنّ مفهوم الحرية الذي يدور في الفقه وعلم الكلام، لا ينأى كثيراً عن مفهوم الحرية الذي تطوّر، وذلك بسبب دورانه حول الفرد وعلاقته مع نفسه وخالفه والكون.

للحرية الذي علم مسبقاً أنّه لن يجده في اللسان العربي، فمفهومها في التصوّر الغربي غائب في الفاموس العربي، فهي ضيقة بالنسبة للمفهوم الغربي.

بالرغم من تأكيده على أهمية البعد اللغوي في المسألة، الذي يعكس ثقافة مجتمع ويعبّر عن أصول تفكيره، فإنّه أشار إلى حدود النتائج في هذا الجانب، واعتبر التحليل اللغوي ناقص لأنّه لم يتحقّق من وجود مفردات أخرى تشارك مفهوم الحرية كما يتمثّله، ولذا يرى أنّه من الضروري الانتقال من اللّغة إلى الثقافة ومنها استنطاق « التاريخ الوقائي » وهو ما أفضى به إلى البحث عن كلمات أخرى مرادفة لكلمة الحرية في المفهوم الحالي. إنّ قصور المفهوم اللغوي أحاله إلى البحث في ميدانين ثقافيين هما:

1- الفقه: في هذا الجانب أثار مسائل تتعلق بحرية التصرف، في أبواب تعالج قضايا الرقّ والحرر. وكفالة المرأة والطفل، وربط مفهوم الحرية الشخصية بمفهوم المروءة، ولا تكتمل الإنسانية في الفرد إلّا إذا شرف بالتكليف، ومناطه العقل الذي يعقل الإنسان من الوقوع في الفواحش والردائل، ومجتمع الفقيه هو مجتمع يجرّأ إلى أحرار ورقيق، ينطلق

وأوضح أنّ منهجهم ناقص ولا بدّ لإتمامه من طرح أسئلة كانوا قد غيّبوها. بناء على هذا الموقف، يبيّن أنّ بحثه عن المفاهيم التي تدرج تحت مفهوم الحرية الليبرالية في الفقه وعلم الكلام، لا يشبهه عن البحث في أبواب أخرى تحت مسميات مغايرة، علّه يجد من الأدلة ما يقوده إلى مسائل همّ الحرية، و تحقيقاً لغرضه رأى ضرورة البحث عنها خارج الدولة ( ضدّ الحكومة )، واهتدى في ذلك إلى أربعة أدلة وهي :

- البداوة: يتناول هذا الدليل بوصفه الفكرة التي حافظت عليها الثقافة العربية طوال حياتها، وأشار أنّ المهتم في هذا المثل الأعلى ما يحمله الرجل البدوي من الفصاحة والبداة والشجاعة والمروءة، واستشهد بعلماء الجغرافيا الذين يبيّنوا أنّ الحياة البدوية، تتميز بالأميّة، والفقر، والتقصّف، والمرض، وخضوع تامّ للأتواء وللعوائد العشائرية، ثمّ استخلص أنّ القانون وإن كان القاسم المشترك بين جميع البشر والخضوع له شرط أساسي، فإنّ البدوي غالباً ما لا يخضع له.

تدلّ البداوة في بعدها الذهني على الرفض لجميع القيود المبتدعة، وأبرز مثال لها الشاعر

يدور مفهوم الحرية الذي صوّره القرن التاسع عشر حول الفرد الاجتماعي، بما أنّه مشارك في هيئة إنتاجيّة لها بعدها الاقتصادي، وهو ما يبرّر في نظره اهتمام الليبراليين بالجمال التنظيمي للإنتاج، من هذا المنطلق يعتبر أنّ مفهوم الحرية قاصر لاقتصاره على الجانب الاجتماعي/ الإنتاجي للفرد فقط. هذا القصور المفهومي لمصطلح الحرية عند الليبراليين سيدفعه للانتقال في معالجته للمسألة إلى المجال الاجتماعي، محاولاً التفرّق بين حرية نفسانية ميتافيزيقية تناوّلها الفكر الإسلامي، وحرية سياسية اجتماعية ينكبّ عليها الفكر الليبرالي، وأكدّ أنّه لمعرفة معنى الحرية في مجتمع ما لا بدّ بالضرورة من تحليل فقه ذلك المجتمع (الجانب السيسولوجي).

دفع منهج المستشرقين فيما يتعلّق بالمجتمع الإسلامي، العروي إلى التساؤل عن صحّته ودقّة نتائجه، خاصّة عندما حصروا مشكل الحرية في الفقه فقط، لأنّ نتيجة البحث حينئذ ستكون متضمّنة في المنهج ذاته، وأبدى من خلال تحليلاته لموقف المستشرقين أنّه يتفق معهم في تقسيمهم للحرية في المجال السياسي والاجتماعي، إلّا أنّه يرفض استنتاجاتهم

يرى العروي أنّ قانون العشيرة يعارض قانون الدولة في المجتمع الإسلامي ، فقانون الدولة بقدر ما يناقض حرية الفرد، بقدر ما يعين قانون العشيرة في عين الفرد على تحقيق الحرية المكتسبة والامتيازات الموروثة. بهذا التحليل لاحظ أنّ دراسة الفقه الإسلامي المجردة وإهمال الجانب التطبيقي يحدث هوة ساحقة، وهو إخطأ الذي ارتكبه جلّ المستشرقين وبعض الباحثين المسلمين، لأنّه سوف تؤدي نتائج البحث فيه إلى اعتبار أنّ الدولة تتميز بتحرية مطلقة للفرد واحد وعبودية مطلقة لمن سواه، وهو ما لا تصدّقه الحياة اليومية التي يعيشها الفرد العربي: هذا القول أفضى إلى استنتاج أنّ الدولة وإن كانت ترمز إلى العبودية، فإنّ العشيرة ترمز إلى العكس، ويتساءل الكاتب إن كان الفقه يعطينا فعلا صورة مطابقة لواقع الحياة العربية في القرون الماضية، لأنّ العشيرة ضمن هذا المجتمع ولكن لا يعترف بها كهيئة قانونية، لذا يعتبر أنّه من الضروري تأويل بعض القواعد الفقهية اعتمادا على معطيات التاريخ العربي، حتّى يستطيع إسكاف العشيرة التي هي عماد الحياة العربية.

- التقوى: ولها ظاهرتان: ظاهرة ذاتية إذ أنّ

الصلعوك، وهي في بعدها الواقعي خضوع للأتواء والغرائز والعادات، ويّين في هذا السياق أنّ علم التاريخ تقدّم في التنقيب عن ظروف وأسباب التطوّرات والانقلابات

المفاجئة، في حين أنّ الجمهور ما زال يفسّر ثورات الخوارج والروافض وعدم خضوعهم للقوانين برسوخهم في البداوة، لأنّ البداوة ما زالت عندهم ترمز إلى الحياة المطلقة، كما دلّل أنّ البداوة في القاموس اللغوي لا تترادف الحرية، وإنما إذا نظر إليها من زاوية كونها رمزا وفكرة مجردة في الذهن، خاصة عند الشعراء والأدباء والمؤرخين، فإنّها جسّدت على مدى قرون ما تطلّع إليه الناس من سعة في العيش وفسحة في التصرف.

- العشيرة: تطلق هذه الكلمة على كلّ جماعة سواء كانت عائلة، أو قبيلة، أو حرفة، أو أحيانا زوايا تحتضن الفرد وتحميه من أذى الغير أيّا كان هذا الغير، وتحمّد العشيرة عادات تكون مفروضة على الفرد وملزمة له، وغالبا ما تتعارض وأوامر السلطان، ولكنّها تضمن للفرد حقوقا معروفة ثابتة، فالفرد في المجتمع العربي التقليدي يفضل الخضوع للعادة على إتياع أمر السلطان، لأنّها جزء من الذات.

يضطرّ الفرد عند شعوره باشتداد الخناق عليه والحدّ من تصرّفاته إلى تعميق تجربته للانفلات والتحرّر، فيلجأ إلى النفس والعشيرة والشرع والسلطان والطبيعة، ليواجه الضغط الخارجي بنفي أسبابه. هذا النفي يؤدّي إلى الانسلاخ عن المادّة والتماهي الكلّي مع فكرة الحرّيّة، فالتصوّف يهجر المجتمع ويطلّ مفعول القوانين، ومثاله الحلاج الذي نلّمس معه معنى الحرّيّة المطلقة، ويقرّر الكاتب أنّ التجربة الصوفيّة وإن كانت فرديّة فهي تشكّل مكسبا ثقافيا بالنسبة لكلّ المسلمين، فالاستبداد الذي يشكّل كاهل المجتمع هو الشرط لكي يتطلّع الفرد إلى حرّيّة تامّة لا مشروطة، والتجربة الصوفيّة هي التي تمكّن الفرد من أن يتمثّل الحرّيّة بالمعنى المخرّد المطلق، ويقابل بين التجربة الصوفيّة والتجربة البدويّة، حيث إنّ التجربة البدويّة ترمز إلى حياة خارج القوانين الاصطناعيّة، في حين يرمز التصوّف إلى حرّيّة وجدانيّة مطلقة داخل الدولة المستبدّة، فالبدوي وإن كان يعيش الحرّيّة ولا يعي الحدود المفروضة على تصرّفاته، فهو لا يتمثّل فكرة الحرّيّة، أمّا المتصوّف فهو يعي بدقّة وضعه في أسفل دركات العبوديّة وحينئذ يتمثّل فكرة الحرّيّة المطلقة.

النظر للتعبّد والالتزام بأوامر الشرع هو خضوع لوازع خارجي وحدّ للحرّيّة الوجدانيّة، واعتبر أنّ المسلمين لم يعيشوا التقوى كخضوع خارجي، بل كاستجابة لنداء موجه إلى الجزء الأسمى في الإنسان وهو العقل، لكي يتغلّب على الجزء الأدنى أي على النفس الشهوانيّة، لأنّه لو رأى المسلمون التعبّد من الخارج لاعتبروا غير مؤمنين. أمّا الظاهرة الموضوعيّة للتقوى فإنّ لها مردودا اجتماعيا بالنسبة للفرد، إذ يفوز الرجل التقويّ بعطف ورضا العشيرة، فيكسب مزيدا من الجاه ويتّسع مجال تأثيره في المجتمع، وهو ما يعني اتساع دائرة تصرّفه، ولذا عدّت التقوى في القرون الماضية بمثابة تحرير للوجدان وتوسيع لنطاق مبادرات الفرد، وكانت طريقا للشعور بالتحرّر.

- التصوّف تجربة فرديّة ذهنيّة، تملخص في تمثّل الحرّيّة المطلقة بعد الانسلاخ عن كلّ المؤثرات الخارجيّة، طبيعيّة كانت، أو اجتماعيّة، أو نفسيّة.

يرجع العروي نشأة التصوّف وانتشاره إلى انحطاط الدولة وتدهور الحضارة الماديّة والأدبيّة، ويرى أنّ هنالك تلازما بين ازدهار التصوّف من جهة وانحطاط الدولة من جهة أخرى.

كلّما اتسع مفهوم الدولة ضاق مفهوم الحرية، وبين أنّ وطأة الدولة الليبرالية كانت ثقيلة على الفرد في أوروبا لأنّها تمسّ كلّ مجالات الحياة، ومن الخطأ تصوّر الدولة الإسلامية على غلط الدولة الليبرالية، لأنّه سيرز تنافي وتعارض

حرية الفرد داخلها، بخلاف إذا ما نظرنا إليها في واقع التاريخ الذي يدلّ على أنّ الفرد حافظ داخلها على حرية أصيلة. يقبل بهذا الاعتبار استنتاجات المستشرقين ويشترط حصرها داخل الدولة، ولا بدّ من إبراز أنّ الدولة الإسلامية ليست الدولة الليبرالية الحديثة وهي مغالطة لها تماماً، لأنّها لم تشغل في جميع مكونات المجتمع الإسلامي.

أشار في نهاية الفصل أنّ العالم العربي الإسلامي سيعرف تطوّرات عميقة همّ خاصّة الدولة والمجتمع، وستتولّد عنها علاقة الدولة بالمجتمع وعلاقة الحرية كواقع بالحرية كطوي، لأنّه كلّما ضاق مجال الحرية كواقع ازدادت قوّة ودقّة الحرية كرمز ومفهوم، وأبرز أنّ الجدل القائم بين الحرية كواقع وكطوي سيخلق حاجة إلى مفهوم جديد وتعبير جديد، وسوف يلحّ العالم العربي إلى تعابير أجنبية ينبع مضمونها من واقع تطوّرات المجتمع الإسلامي.

استنتج بهذا التحليل، أنّ التجربة الإسلامية أغنى ممّا حواه القاموس العربي الذي لم يجد فيه المستشرقون مفهوم الحرية الشاملة المطلقة، فذهب بهم الظنّ أنّ النقص يدلّ على انعدام الحرية وغياب الشعور بضرورتها.

### الحرية بين الثابت والمتغيّر

يرفض العروى النتائج التي توصّل إليها المستشرقون، وبثبت أنّه إلى جانب القاموس العربي الذي يمثّل قاموس الثقافة، فإنّه يوجد ما سماه قاموس «التاريخ الفعلي أو الواقعي» وهو أكمل من الأوّل. هذه الرموز التاريخية بحث عنها وحدّدها في أربعة أدلّة، كلّ منها يعبر عن مؤسسة اجتماعية وعن دعوة أخلاقية ومثّل أعلى وعن نفسانية نوعيّة، فتشير التقوى إلى حرية فردية داخل الدولة، ويتصوّر التصوّف ملامح الحرية المطلقة خارج الدولة.

وبناء على الاستنتاجات التي توصّل إليها، لاحظ أنّه لم يثبت واقع الحرية إنّما أثبت حلم الحرية، وهو ما عبّر عنه «بطوي الحرية»، واعتبر وجودها في مجتمع ما أمر مهمّ لأنّه يدلّ على أنّه مستعدّ لقبول الدّعوة إلى الحرية. كما أكّد على التلازم بين مفهوم الحرية ومفهوم الدولة في المجتمع العربي الإسلامي التقليدي، وأشار إلى أنّه

ولعل الاختلاف السياقي لسر التاريخ والواقع الاجتماعي دفع إلى عدم التوافق المفهومي للحرية، «وبتطوير البنية التركيبية لمفهوم الحرية، يصل العروى إلى استنتاج حصيف يستخلص منه أنه ربما لم تعرف المجتمعات العربية الحرية، «كواقع اجتماعي» ولكنها أثبتت وجود «حلم الحرية» أو كما يسميها «طوبى الحرية»، أي استعداد المجتمع لقبول فكرة الحرية (2).

بالرغم من مؤاخذات العروى لمنهج المستشرقين في معالجتهم لمسائل تتعلق بالمسلمين، فإنه شاركهم في نواح من معالجته لمسألة الحرية في الأصول منهجهم وعالجها من منطلق التفكير الغربي، من فضاء موضوعي وجغرافي خارج عنه، ولاشك في أنه هنالك بون في المقارنة بينهما. وفي النتائج المستخلصة عنها، لأنه «سيكون من قبيل الخداع والمواربة تأصيل الحرية بمعناها الحديث (الفلسفي والغربي) فذلك إسقاط، لأنه من الأمور الجلية تاريخياً أن الحرية بمعناها الحديث، شيء تعرف عليه المسلمون حديثاً» (3)، ولإدراك معنى الحرية فلا بد من الحديث عنها «في سياقها الإسلامي المعاصر من منظور قيمي وحضاري مجرد» (4)، ويمكن أن

أكد هذه النتيجة أنه لا يجوز الانطلاق من مفهوم مسبق للتساؤل عن مفهوم آخر، فلا يمكن الانطلاق من الدولة الليبرالية لنقد الحرية في الإسلام، فالواجب البدء بواقع المجتمع والتساؤل عن استطاعات الفرد وتطلعاته، لأن التطلعات هي التي تشير إلى إمكانيات المستقبل، وعندما تتحقق تعبر عن ذاتها بعبارات مستعارة.

إن البحث عن الحرية في المجتمع الإسلامي وفي مجال حرية الفرد، أوسع بكثير مما يشير إلى نظام الدولة الإسلامي التقليدي، فالحرية في الدولة لا تعدو كونها تعبر عن ذاتها بكييفية عكسية، لكن الدولة لم تكن تمثل للفرد حيزاً ضيقاً، فحيز الحرية مواز لحيز الدولة وحاصل القول أن حيز الدولة ضيق وحيز الحرية (اللا دولة) واسع.

### الحرية دلالات وإيماءات:

إن عملية التفكيك السوسولوجي، والتأصيل اللغوي والفقهية، التي سلكها العروى جعلته «يخلص إلى أن ثمة فارقاً كبيراً في مفهوم الحرية لدى الطرفين العربي والغربي، ليس فقط على مستوى البنى التركيبية للمفهوم، وإنما لاختلاف السياق الاجتماعي والتاريخي بين الطرفين» (1).



نعالجها من النواحي التالية:

### \* الناحية اللغوية: في تحديد المفاهيم:

تناولت معاجم اللغة العربية تعريفات للحرية ودلالاتها وأغلبها «تنبئ أن هذه الكلمة بسائر تصاريفها في اللسان العربي على معان فاضلة ترجع إلى معنى الخلو، يقال (5) حرّ بحر كظلّ يظلّ أحراراً بالفتح بمعنى عتق، والاسم الحرية. وجاءت لمعنى استقلال الإرادة وعدم الخضوع لسلطان الهوى» (6)، واعتبر الشيخ الخضر حسين «أن هذا اللقب الشريف ينصرف اليوم في مجرى خطابنا إلى معنى استقلال الإرادة، ويشابه معنى العتق الذي هو فكّ الرقبة من الاسترقاق، وهو أن تهبّ الأمة عيشة راضية تحت ظلّ ثابت من الأمن، على قرار مكين من الاطمئنان، ومن لوازم ذلك أن يعين لكلّ واحد من أفرادها حدّاً لا يتجاوز، وتقرّر له حقوقاً لا تعوقه عن استيفائها يد غالبية» (7).

الشاهد من هذه التحديدات اللغوية بيان أن مفهوم الحرية عند المسلمين شهد تطوراً واتساعاً في دلالاته، فلا ريب أن للأحداث الجسام التي جدّت في العالم الإسلامي أثراً بارزاً. ولعلّ انفتاح المسلمين في القرون الأخيرة على العالم الغربي ساعدهم في ذلك، وهو ما بدا

واضحاً في تعليق الشيخ الخضر الحسين في التدليل على ما تنبئ الحرية في عصرهم، من استقلال للإرادة وتحديد لحقوق الأفراد وواجباتها، وتنبئ كذلك مؤلفات رواد النهضة على نزعة البحث عن دلالات الحرية وأبعادها من خلال مع عرفوه عند الغربيين. كما تبرز أدبياتهم عن التحوّل العميق في مدى فهمهم لمعنى الحرية في مجتمعاتهم، وبالأصح إعادة النظر في فهمهم لبعض مجالات الحرية عندهم، وهذا يبيّن في آثار الكواكبي والأنفاني على سبيل المثال، ولعلّ ما ذكره خير الدين التونسي في مؤلفه يعبر بصدق عن وعيهم بالحرية ومدى تمثيلهم لها «إن لفظ الحرية يطلق في عرفهم (يقصد الأوروبيون) بإزاء معنيين: أحدهما يسمّى الحرية الشخصية، وهو إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم، بحيث إن الإنسان لا يخشى هزيمة في ذاته ولا في سائر حقوقه، ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المتقرّرة لدى المجالس... المعنى الثاني الحرية السياسية، وهي تطلب من الرعايا التداخل في السياسات الملكية... وبقي وراء ذلك للامة شيء آخر يسمّى حرية

التعبير عنها بما يناسبهم.

### \* الحرية فطرة إنسانية:

يذهب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى القول «إن الحرية هذه خاطر غريزي في النفوس البشرية فيها ثماء القوى الإنسانية من تفكير وقول وعمل، وبما تنطلق المواهب العقلية متسابقة في ميادين الابتكار والتدقيق. فلا يحق لها أن تسام بقيد إلا قيادا يدافع به عن صاحبها ضراً ثابت أو يجلب به نفع» (9). فأصل الحرية في الإنسان يجعل منه كائناً متميزاً بقوى الفكر والقول والعمل.

دافع الإسلام عن فطرية الحرية في الإنسان منذ ظهوره، ودعا إلى اعتبار الناس سواسية في الأصل والاختد، ولا أساس للتفاضل بين الناس إلا العمل الصالح والتقوى قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (10)، وتفترض كرامة الإنسان أصلاً مبدأ الحرية فيه قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (11). إن ضبط هذه الحرية وتقييدها يعتبر من

المطلبة، وهو أن لا يمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب و«الجرنالات» التي تطلع عليها العامة، أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها» (8).

فالحرية بهذا المعنى تشمل جوانب رئيسية من أهمها أنها فطرية في الإنسان (الجوانب الحياتية في شخصيته، ومنها المتعلقة بحياته الشخصية)، والحرية السياسية ووسائل تطبيقها المعاصرة، وحرية التعبير وضمانها حرية التفكير، كما دلت أيضا على اتساع دلالاتها اللغوية واستيعابها لمعان الحرية التي غناها الغربيون.

إن البحث في هذه المجالات يبرز مدى تمثل المسلمين لمعنى الحرية عبر التاريخ، وكذلك مدى تصورهم لمفهومها عند الغربيين، فالمسلمون لم يفقدوا الحرية وإنما انتقدوا معاشة مدلول الحرية، والمسائل التي أثارها العروى سواء كانت تاريخية أو فكرية أو أخلاقية تعبر عن وجود هذا المفهوم الغائب/ الحاضر عند المسلمين، ولذا فمن الضمير الحديث عن طوباوية الحرية لديهم واعتبارها فكرة يتقبلها الواقع الاجتماعي للمسلمين وبإمكانهم

أرسل إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل بما يسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فسأله رستم عن حقيقة الإسلام؟ فقال المغيرة: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فقال: ما أحسن هذا، وأي شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، قال: حسن أيضاً، وأي شيء أيضاً؟ قال: والثاس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم. وقال: حسن أيضاً(14).

تقرر عقيدة التوحيد أن أصل الحرية ثابت في الإسلام، والتي منها الحرية الدينية والحرية الفكرية أو الحرية العقلية، ولذلك كان أساس الدعوة المحمدية إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فالعبودية الحقّة تحرير للإنسان من كلّ أشكال العبودية التي قد تخرج به عن تكريم الله تعالى له، من هذا المنطلق اعتبرت عقيدة التوحيد تقرير شامل للإنسان، وهو ما أمر به القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

إن فلسفة التوحيد التي جاء بها الإسلام «كانت في حدّ ذاتها ذات أثر خطير في تحرير الإنسان كلّ الإنسان، من الخوف والجبن والطمع

أصول المحافظة عليها لذلك نجد في جلّ الدراسات الفلسفية والكلامية والفقهية التقنية، أن البحث عن حدود وضوابط ممارسة الحرية هو عين الحفاظ عليها ومعايشتها في آن «وكثيرا ما تحدّد الحرية باختيار صاحبها بما يلتزم به، من الالتزامات، والعقود، والعهود ونحوها، فما يلحظه إلى تقييد حرية أقواله وأعماله» (12). كما أنه «لو استقرنا تاريخ المجتمعات البشرية، لوجدنا أن الإنسان ظلّ يفرض على نفسه مزيدا من القيود لكي ينال مزيدا من الحريات... فتحنن نفرض على أنفسنا أن نتقيّد بإشارات المرور، لكي ننال بذلك مزيدا من الحرية في حركة المرور، والدليل على ذلك أن تعطل إحدى الإشارات الذي يبدو في الظاهر وكأنه يعطي السائق أو السائر «حرية» السير كما يشاء، يؤدي في واقع الأمر إلى إلغاء الحرية بما يسببه من تكدّس وفوضى في المرور. وهكذا الحال في أمور البشرية جميعها: إذ تنتقل من حالة الحرية العشوائية أو المتخبطة التي كانت تسود في البداية إلى نوع من التنظيم أو التقييد الذي يحقق لنا مزيدا من الحرية» (13).

### \*أصالة الحرية في الإسلام:

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن رستم

جمعاء: أَنَّ الذي يتلقَّى المبادئ ويؤمن بها بدون بحث عقليّ ونظر منطقيّ فما هو لسبيلي من المتبعين، ولا هو عندي من المؤمنين» (16).

للحرية بكلّ مجالاتها ولا سيما العقلية منها قيمة عظيمة في الإسلام، فالقرآن الكريم «نزل من السماء ليحرّر العقل البشري من تلك القيود التي كان يرسف فيها باسم الدين، والتي قيّده بها السلطات الدينية... على أَنَّ أمر القرآن مع الحريات لم يقف عند هذا الحدّ، وإنّما مضى إلى ما هو أبعد من هذا، فعمل على تحرير الإنسان من رقة أخيه الإنسان، عمل على القضاء على التبعيّة وعلى الرقّ والعبودية... ومضى القرآن أبعد وأبعد، فحرّر الإنسان من المخاوف الطبيعيّة» (17).

أساس تحرّر الإنسان وتطوّره هو التحرّر الفكري ونماء العقل بالمعرفة وإغنائه بالاكتشاف والبحث، ويتأكّد ذلك في رفض الإسلام الإيمان القسري للإنسان، وجعل أساسه الإيمان النابع من الإقناع العقلي القائم على البرهنة والاستدلال، فاعتبر أَنَّ الوحي المنظور منطلقاً للإيمان بالوحي المقروء، وتنطق بحمل الآيات القرآنيّة بهذا الأصل.

يقول تعالى «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ

والظلمة وأصحاب النفوذ وأرباب المال تحرّروا كاملاً. إنّه تحرّر في القول والعمل والفكر والطعام واللباس والتحرّك، ولكنّه في نطاق الالتزام بروح الإسلام» (15).

ولعلّ أبرز أثر لعقيدة التوحيد في تحرير الإنسان الجانب الفكري، ويستتبع ذلك لزوماً القول والفعل، ومن نافلة القول أَنَّ مسألة الفعل الإنساني قد خاض فيها كثيرون الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً، وفي تصوير إقرار الإسلام بمبدأ الحرية العقلية والفكرية أصلاً ثابتاً لمعتنقيه والمؤمنين به يقول الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور «لقد أخذت بالاجتماعات الإنسانية من عهد صباها الأوّل سرت فيها روح الدجل، وعمّشت فيها الأنانيّة، وتحكّم عليها الاستثمار الدنيوي، ورأت في خبايا العقل الأنوار الفاضحة لدجلها، والأعنة الكابحة لأنانيتها والمعول الهدامة لسوء استثمارها، فأقبلت تصرف العقل عن أمانته الإلهيّة العظمى... فحاجت الشريعة المحمديّة تقبّل في نظر الدّنيا هذه القضية الزائفة، وتقرّر: أَنَّ العقل أساس الحياة كلّها حتّى العقيدة الدينيّة... وإذا كانت رهبانيّة الأديان تقول لأتباعها: إنكم إذا أعملتم العقل في عقيدتكم كفرتم، فهذا الإسلام ينادي الإنسانية

من قوله « خلق لكم » يفيد حقّ الجميع في جميع ما في الأرض، فتعيّن أن يصار في تأهّل البعض لبعض ما في الأرض وفي توزيع ذلك وتقسيمه إلى نظم وقوانين، وبذلك جاءت شرائع المعاملات بين الناس في ما على الأرض دفعا لحدوث التهاجر بينهم» (23).

لقد حرّرت عقيدة التوحيد في الإنسان التفكير والفعل، التفكير من كلّ مكبلاته ومنها الوهم والخرافات والأساطير التي أعاقت كثيرا الفكر الأوروبي في عصور الظلمة، ولم يتحرّر ويبدع إلا بعد ما عايشه من عصر الأنوار الذي قاده الفكر الفلسفي التنويري. إنّ التفكير وإعمال الفكر من أجل مقومات الحرية الإنسانية، لأنّ الجهل والامية هي أصل العبودية التي تذهب بإنسانية الإنسان، ومنعه من التحرّر والانعقاد من القيود التي تقيد إبداعاته، وفي التاريخ الغربي الوسيط والمعاصر من الأدلة التي تؤكد، أنّ الغرب لم يصل إلى ما هو عليه من التحرّر بالقطع مع الفكر الديني والتحرّر من سلطته، وإلّا بفضل تحرير العقل والفكر من الخرافات والأوهام والأباطيل التي كلّسته لفترات من الدهر، فكان تحرّر العقل الغربي وتنوّره بنور المعرفة والبحث والاستنباط هو سرّ

خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ» (18) خاطبت هذه الآيات البدوي في العناصر الطبيعية القريبة منه، حتّى يتبه إلى أنّ الأصل فيه التفكير وتعقّل الأشياء وإدراك غيرها حقيقة واجب الوجود، وخاطبت الإنسانية جمعا بهذا الأصل في جميع العصور والأمصار قال تعالى «سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفُرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (19).

كما أصل الإسلام مبدأ حرية الفعل قال تعالى «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» (20)، قال الزمخشري «ومعنى دسها الفجور والتقوى: إفهامهما وإعقابهما وأنّ أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما بدليل قوله «قد ... دسها» ففعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليها. والتزكية: الإغناء والإعلاء بالتقوى. والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور» (21). وفي قوله تعالى «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (22) يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور «فكانت حرية العمل والفعل أصلا فطريّا فإنّ لفظ «لكم»

ولعلّ لتغيب الحرية الفكرية، غابت معها جلّ الحريات التي جعلته «يعلم» في واقعه، بمعاشية الحرية مفهوما الذي أصله الإسلام في أحكامه وتشريعاته، وهو ما أشار إليه جلّ المفكرين والمصلحين الذين اعتنوا بهذه الناحية، فيري الكواكي مثلاً في معالجته لظاهرة الاستبداد عند حكام المسلمين أن أصل الداء ليس في الحاكم المستبد، وإنما في الأسباب التي أدت إلى استبداده وأهمها الجهل وتغيب العقل، ورأى الأفغاني أن سبب ما عليه الشرق من تأخر وغياب لمظاهر الحرية عندهم تغيب حرية العقل «فإنك تراهم في سرهم كالبهائم لا يتدبرون أمراً، ولا يتقون في أفعالهم شراً، ولا يكدون جلب المنافع، ولا يجتنبون الضرر. طرأ على عقولهم السبات، ووقفت أفكارهم عن الإحالة في إصلاح شؤونهم، وعميت بصائرهم عن إدراك التوازن التي أحاطت بهم» (24)، واشترك معهم مصطفى فاضل باشا في رسالته للسultan عبد الحميد حينما بين أن أصل الداء في واقعهم الجهل والفقر، ويتعلقان أساساً بحرية الفكر والفعل التي أصلها الإسلام وغيبها كثيرون المسلمين في ممارساتهم، فغابت عنهم معاني الحرية التي ينعم

ما وصل إليه من تطوّر وتقدّم. كما أنه من الأصول الثابتة لركائز الحضارة الغربية، مبدأ التغير الذي يقرّ بقيمة وأهمية الفعل والعمل وبضرورة التقدّم المتواصل في كلّ ميادين الحياة. هذا التصوّر لأسس تطوّر الغرب لم يرق فقط على الفصل الديني عن الدنيوي أو استبعاد سلطة الكنيسة (التفكير الديني) على مجالات الحياة المدنية، وإنما بفضل العلم والمعرفة والفعل المثمر والبناء. بالمقابل فإنّ في التاريخ الإسلامي صوراً ناصحة تروي لنا أن الحرية لم تكن حلماً، وإنما كانت واقعا حياً جعلت الحضارة العربية الإسلامية تدع في مجالات الحياة المتعددة، كما دلّل واقع المسلمين على أنّ الحرية لم تكن مفقودة عندهم، وإنما غياب قيمة الحرية الفكرية (حجة خلق القرآن مثلاً وأبعادها الفكرية والحضارية)، هي التي ضعفت عندهم وأدت إلى غياب صيانة الحرية كرمز وحفظها، وتاريخ العديد من الدول العربية والإسلامية المعاصر تحديداً يبرز مدى دفاعهم عن حرياتهم والذود عنها بالمعنى الذي رأوه مناسباً لبيئتهم وثقافتهم، وهي بالضرورة تشترك وتتقاطع مع الحرية الغربية في العديد من نقاط الاتفاق والتوافق، وإن باختلاف في المنطلقات والمناهج.

### الهوامش

- (1) سباقات الحرية والإشكاليات: قراءات في أطروحات عبد الله العروي، العناني حليل [www.Ahlou el feker.com](http://www.Ahlou el feker.com)
- (2) د م .
- (3) حليلي عبد الرحمان: الحرية وأبعادها [feker.com](http://feker.com)
- (4) د م . [www.Ahlou el](http://www.Ahlou el)
- (5) أصل هذا التعريف بهذه الصيغة في تاج العروس « عن ابن الأعرابي : حرّ بحرٌ كمثلٌ يظلُّ أحراراً بالفتح : عتق والاسم الحرية » الزبيدي : تاج العروس 2679/1.
- (6) المختصر حسين محمد: الحرية في الإسلام المطبعة التونسية ط 10.
- (7) د م ص 11.
- (8) التونسي خير الدين أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص 206-208.
- (9) محمد الطاهر ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام دار السلام القاهرة ط 10 ص 159.
- (10) المحررات 13/49.
- (11) الإسرائ 70/17.
- (12) ابن عاشور محمد الطاهر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص 152.
- (13) زكريا فواد: التفكير العلمي ص 171.
- (14) ابن كثير إسماعيل: البداية النهاية مكتبة المعارف بيروت د.ت 39/7.
- (15) الشكعة مصطفى: معالم الحضارة الإسلامية دار العلم للملايين بيروت ط 5، ص 31.
- (16) ابن عاشور محمد الفاضل: ومضات فكر الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1981

بما الغريون.

إن أهمية الحرية في حياة الإنسان، تجعل منها مبحثا متداولاً في الفكر الإنساني (الفلسفي والديني...) مقترنا بماحس من الإشكاليات، التي تدفع إلى معالجتها وفقاً لما يرتقي بإنسانية الإنسان ويحمّد مبدأ الدفاع عنها ومشروعية ممارستها، لذلك كان الوعي بدلالات الحرية وحُدودها من أهم مؤشرات وعي المجتمعات الإنسانية بما، التي اشتركت في قيمة الحرية كمبدأ إنساني خالده وتباينت في التطلعات والأصول الباعثة على الاهتمام بما، وهو أمر طبيعي إذا ما اعتبرنا أن الأصول الفكرية والحضارية للمجتمعات، لها دورها البارز في اختلاف مستويات المفاهيم المتعلقة بالحرية. هذا ما حاول إبرازه الكاتب في هذا الفصل، ولذلك رجع إلى البحث عن مقومات الحرية ودلالاتها من خلال ثقافة المجتمع الإسلامي التقليدي، وقد دفعنا المنهج الذي تبناه في معالجته للمسألة إلى النظر فيها انطلاقاً من طبيعة الثقافة الإسلامية، من خلال القاموس اللغوي وتناول بعض المسائل الجوهرية، كأصالة الحرية في الإسلام، وعلاقتها بعقيدة التوحيد، وارتباطها الوثيق بالحرية العقلية .

- ص 217. (22) البقرة 29/2.
- (17) حلف الله محمد أحمد: القرآن نظرة عصرية جديدة  
للمؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1972، ص 7-8.
- (23) ابن عاشور محمد الطاهر: أصول النظام الاجتماعي في  
الإسلام ص 166.
- (24) شلش علي: جمال الدين الأفغاني: الشرق والشرقيون،  
ضمن سلسلة أعماله المجهولة رياض الريس للكتب والنشر ط  
1 لندن 1987، ص 94.
- (19) فصّلت 53/41.
- (20) الشمس 10-9-8-7/91.
- (21) الزعفراني: الكشف دار المعرفة د.ت 1367/1.

### مقاربة رسائل النور للتحرر من النمط الاستهلاكي للحياة المعاصرة

... كتبت رسائل النور في فترة تاريخية عصيبة، من تاريخ تركيا والأمة الإسلامية، إذ بعد سقوط نظام الخلافة، تامت الثورات الانقلابية والمادية، واختلقت جملة من العواصف الفكرية، والتي كادت تذهب بإيمان شباب الأمة، فقبض الله أمثال الإمام سعيد النورسي، ليقود حملة تصحيحية شاملة، جعلها في مجموع رسائله.

وان كتبت هذه الرسائل تحت تأثيرات التخلفات التاريخية، وأضيق فطرونا المجتمع التركي، والذي وصل درجة مفزعة من الانحطاط الأخلاقي والدمار الروحي والذي يشبهه الإمام النورسي "بشتاء معنوي رهيب". إلا أن أطروحات رسائل النور تتجاوز في حقيقة الأمر هذا التحديد الزمني والجغرافي، نظرا لوعي المؤلف بهذه الحقيقة، إذ يرى أنك ليلت رسائل النور تصلح لأي مؤمن في أي بقعة من العالم، حتى ولو كان في الهند والصين<sup>1</sup> هذا من جهة.

أما من جهة أخرى، فالتقضايا المطروحة ضمن هذا المؤلف الضخم، ما زالت حية وقاعلة، وممس جوانات هامة من واقع الأمة الراهن، الأمة الراهن، خاصة أمام تشابه الملابس، ما قاله الإمام النورسي منذ نصف قرن، عن حالة الغفلة التي تعترى أفراد مجتمعه، ما زالت تصدق على حالة الأمة العثمانية، إذ يرى أن قلة منهم متيقظون والذين لا يبلغون واحد من عشرة، أو واحد من عشرين، من مجموع أفراد مجتمعه.

الباحث: محمد الرزقي



## "الشخوخة"

### قصة: بهيجة الدلاي

من عيني:

بعد ماذا؟ بعدما لوّث شرقي وجرح كرامتي  
وسدّد لي ضربته الموجعة لا ولن أعود إليه ثانية  
اتركيني وشأني...

واندفعت في نوبة حارقة من البكاء وبصوت  
عال رحت أعدّد وأرثي حظّي كأنني نائحة في  
مأتم:

لماذا يا ربّ أجزي هكذا؟ ماذا فعلت حتى  
أنتقي اللطمة وراء اللطمة والطعنة وراء الطعنة...  
وأنا المستقيمة طوال حياتي... إيماني العميق بك  
وتقواي وبرّي بوالديّ أشياء متغلغلة في  
كياي... منذ أن وعيت بالوجود ولا مرّة  
واحدة عصيتك أو عصيت أمرا لوالدي أخافك  
يا ربّ في نفسي وفي عملي... فلماذا يكون  
حظي هكذا دون سائر البنات؟ بكيت وانتجيت  
إلى أن خارت قواي فتمددت على السرير بذهن  
مرتبك محيط بدور ويخلق هنا وهناك حتى وصل  
به التحليق إلى أعوام مضت... إلى أيام الحب  
الأول والتجربة الفاشلة التي مررت بها مع رفيق،  
فقد تم العارف بيني وبينه في قطار الخط الرابط

طرفت أُمّي باب الغرفة التي لازمته من أسبوع  
ترجوني وتتوسّل في صوت أشبه بالأمس:

افتحي يا ابنتي ولا تغذليني وتعصي أمري  
وكفّك عناداً وإصراراً على موقفك... زوجك  
وأهله جاؤوا يعتذرون ويقرّون بخطيئتهم تجاهك  
طامعين في رجوعك إلى بيتك... زوجك يا  
ابنتي يكاد الندم يفتك به على ما صدر منه

نحوك... لو رأيته المسكين كيف وقف أمامي  
ذليلاً كسيراً شاحباً وأمه بحرقه شديدة  
عليه... افتحي يا ابنتي ولا تكوني عنيدة تقابلين  
الشرّ بالشرّ... إذا أردت أن تشاري لنفسك  
وتنتقي منهما أي هو وأمه فأعفي عنهما  
واصفحي فأشرف النار العفو كما يقولون ومع  
ذلك فالرجل معذور أيّ رجل مكانه سيكون  
موقفه وتصرفه مماثلان لموقف وتصرف زوجك!  
اعذريه وتذكري مناقبه ومحاسنه والأيام الحلوة  
التي قضيتها معه والسعادة التي ظللتك وإياه...  
كفّك يا ابنتي مكابرة هاهو المسكين جاءنا  
راكما يعتذر بعدما شعر بتجنّبه عليك...

صرخت من خلال دموعي الغزيرة التي تدفقت

بعد أسبوع من استلامي لوظيفتي خرجت يوم راحتي أتفرّج على مدينة سوسة العتيقة وفي لمح من أنفجها الضيقة صادفت السيد المرشد السياحي ثانية تبادلنا التحية والسلام وسألني عن أحوالي في الشغل فأجبتة بأنني سعيدة للغاية بعملتي فكلّ يوم يضيف لي شيئا جديدا فهناك فرق بين ما تعلمته وبين ما أطبقه الآن أعلمني هو بدوره انه أيضا مسرور بعمله وسألني هل عندي مانع إذا ما رافقتي وشاركتني تجوالي فأجبتة بأنني موافقة ولا أرى في ذلك مانعا... وتعددت اللقاءات حتى نمت بيننا مودة عميقة أصبح بعد ذلك حبا جارا فبعد اكتشافنا أن أشياء كثيرة تجمعنا وتربط بيننا.. أفكارنا مشتركة... هومنا، ميولنا، أحلامنا تقريبا واحدة حتى نشأتنا وطفولتنا التي عشناها في ظلّ الأيوين تتشابه كثيرا... كلانا ترنّى في بيت متواضع مكثظ بالأطفال يترأسه أب يكدح من طلوع الشمس إلى غروبها لتوفير اللقمة ومع ذلك الدخل لا يفي بالحاجة لذا كلانا عرف الحرمان والعجز المادي ما جعلنا نتحد من النقائص التي كبت علينا. وعشناها نواذر ودعابات ساحرة نحكيها ونكت ونضحك منها بعدما تداعت الحواجز بيننا وأصبحنا ننصّرف ونتكلم بصدق وتلقائية كبيرة ولسنا مضطرين

بين تونس وسوسة عندما جلس على مقعد بجاني... لم أعره اهتماما ولم أنظر إلى وجهه حتى عندما طلب مني هل بإمكانه أن يفتح النافذة أجبته بإيماءة براسي دون أن أرفع عيني عن كتاب كان ييدي تعلم الألمانية دون عناء وبعدما فتح النافذة واستوى ثانية في جلسته أحسست وكان الكتاب الذي بين يدي آثار انتباهه وكان إحساسي في عله فبعد برهة قال لي: -هذا كتاب باللغة الألمانية كم جميل أن يتكلم المرء لغات أخرى غير لغته أنا أيضا أتكلم اللغة الألمانية فقد تلقيت تكوينا في مدرسة سياحية فيها تعلمت اللغات الحية وتحصلت على شهادة في الإرشاد السياحي هتفت مندهشة:

-يا للصدفة العجيبة أنا بدوري تلقيت تكوينا في مدرسة سياحية وتحصلت على شهادة مضيغة استقبال

ودار الحديث بيننا حول السياحة في تونس ومداخلها والفوائد التي تعود بها على بلادنا، وحول العمل في التزل مزايها ومساويه فكلانا في طريقه لاستلام وظيفة في نزل من التزل المنتشرة في الساحل وعندما وصل بنا القطار إلى مدينة سوسة تصافحتنا وافترقنا وبعدما غادرنا المحطة نسيتة تماما.

لي مطرية وأصبح لزاما على جسمي النحيل أن يتحمل لدغ البرد الشديد دون أن أتذمر أو اشكي المهم أن أرى نفسي احمل مطرية مثل البنات... لكن ذلك الشتاء لن أنساه ما حييت فقد اشتدت البرودة في تلك السنة دون أن تجود علينا السماء بمائها.. كان حقا شتاء قاسيا باردا جافا إلا من رذاذ ناعم يتساقط أحيانا بالليل عندما أكون نائمة وقتها تكون المطرية معلقة في مسمار دق على الجدار ترمقني وتسخر من أحلامي... وعدة نوادر حكاهها لي رفيق اتخذها من بعض مواقف مضحكة مبهكة تعرض لها بسبب العصر الماوي نعم هكذا كنا صريحين ربما لهذا السبب نحابينا أكثر وهتينا أنفسنا بحياة سعيدة مع بعضنا إذا ربطنا الزواج وعندما قدمني أول مرة لعائلته ودخلت بيتهم لم أجد أي فرق بين الحياة في بيتنا والعيشة عندهم ففي وجه أمه رأيت بساطة أُمي وابتسامة أُمي وطيبة أُمي وفي عيني أبيه رأيت تعب أبي وضيره وفي سلوك إخوته رأيت بالضبط عقدة حياة إخواني عندما يصطفون خجلين ليسلموا على أي ضيف دخل بيتنا وهم يخشون بعضهم البعض هذا التشابه الكبير بيننا وبينهم أثلج صدري وأفرحني فالزواج الناجح في رأيي هو المبني على أسس التكافؤ وخاصة اجتماعيا أصبحت أخته

لنتكلف فمثلا رويت له حكايتي مع المطرية فمن الأحلام التي كانت تداعبني عندما كنت طفلة هي أن يشتري لي أبي مطرية ففي ذلك الوقت تعتبر المطرية شيئا من الكماليات التي لا نجدها إلا في بيوت الميسورين الحال والبنات اللواتي يحملن مطرية قليلات جدا ومن بيوت حالها أيسر من حالنا بكثير وعدد أفرادها غالبا ما يكون قليلا جدا بالنسبة لبيتنا الذي يعج بالبين عجا لذا كان حلمي أن أحمل أنا أيضا مطرية مثل البنات الميسورات وأتخايل بما تهبها في الأنفج كلما دعيتي الحاجة للخروج عند نزول المطر ومن الله علي (بالسيزيام) أي الدخول إلى المعهد الثانوي وفعلا دخلته في شهر أكتوبر وهامي إلا أسابيع قليلة حتى تغير الطقس وانخفضت درجة الحرارة وبدأ الهواء البارد يغازلنا ويداعب أطرافنا ما جعل والدي يتفطنان بأنني في حاجة ماسة إلى معطف يقيني من البرد، وعندما سمعتهما يتحدثان عن شرائه توسلت إليهما بأنني في حاجة أيضا إلى مطرية وإني أراها ضرورة جدا عندها تكلم أبي:

-لا ليس في مقدوري شراء الإثنين إنما المعطف أو المطرية... إني خورتك فاختاري لذا عجلي بالقرار... وأرأس استقر رأيي على المطرية قبل أن يرجع أبي في كلامه ويحطم حلمي وأصبحت

هاتفيا آخر لحظة ليقول لي بأنه تعرّف على أرملة سويسرية وسيسافر معها إلى بلدها وهناك سيتزوجان فزواجه منها يضمن له أشياء كثيرة وساق لي أسفه واعتذاره. قائلا ومعلّلا بأن المصلحة اقتضت والضرورة حتمت .

ألجم الذهول لساني برهة ثم صرخت مستنكرة: مستحيل وحبّنا... ووعودنا... وأحلامنا هل كانت كلها أوهاما حركات زائفة لا معنى لها عندك... لماذا تركتني أحلم وأفل...

كلّ ما سمعته منه في تلك اللحظات المألقة كل شيء بالمكتوب،، على كلّ أثنى أن تجدي الإنسان الذي يسعدك ...

أفنى المكالمات بتركنتي أكتوي بنار الغدر التي أحجها في ... يا ربّ السماء كيف هنت عليه ليسدد لي هذه الصبغة الموحجة ... تركنتي أحلم وأقياً وأخطط بينما هو في الخفاء يسعى لهجري... حطّم قلبي من اجل أرملة استمالته لتستغل فحولته في إطفاء لبيب شبقها وإشباع هم رغباتها وطمع هو ربما في مالها لتدعيم رصيده المادي فنحن الذين ننتمي للطبقة الكادحة نرى دائما في الأجنبي وخاصة القادم من أوروبا بنكا متحركا فضلا عن تأشيرة وشهادة إقامة تكون لنا حصنا حصينا يقينا من تقلبات الزمن.

الكبرى صديقتي وتزورنا أحيانا في العطل وأزورها كذلك كلّ هذا تمّ أن نعلن خطية رسمية فقد أرجناها إلى اجل غير مسمّى قلنا ثلاث أو أربع سنوات حتى يستطيع كلّ منا أن يمدّ يد المساعدة إلى أبويه ...

أخذت علاقتنا طريق الجذ واستمرت لقاءاتنا مرة واحدة في الأسبوع نلتقي وكلانا متلهف ومتعطش للآخر ومعا نعلم ونأمل ونرسم ونخطط ونستعد لمستقبل مشترك... كنت في قمة السعادة ولم أفق منها إلّا على التغيير الذي بدأ يطرا شيئا فشيئا على رفيق وبدأ القلق يزحف على أعصابي. فقد أصبح يتهرّب مني ويتحاشى اللقاء بي والمخرج معي متعللا بكثرة انشغاله في عمله فال موسم السياحي وقتها على أشده وحين أهاتفه يبيحي زميل أو زميلة بأنه ليس موجودا وحينما يعود سيبلغونه ليتصل بي وانتظر مكالمته يوما أو يومين بلا طائل .. تضاعفت مخاوي عليه وليس منه قلت ربما هو في ورطة أو يمر بأزمة ما في عمله فإحساسي العميق بصدق نيته نحوي جعل الشك لا يغامرني لحظة من ناحيته لما بلغ قلتي ذروته اتصلت بأخته وكشفت لها عما يقض مضجعي فوجدتها لا تعلم عنه شيئا... بقيت ألتقي في لبح الحيرة والشكوك المتباعدة حين اتصل بي

الابتسامة "ابتسم للشرّ يذهب عنك" "البسمة اقرب طريق إلى القلب" "البسمة إهانة للمصيبة"... ووجدتني أبتسم" مرة بعد الذي حدث لي.

تبدن أجهل وأحلى عندما تبسمين، قال: لم كلّ هذه الكآبة ليس في الدنيا شيء يستحق أن نوليّه أهمية لنفرض انك تجتازين فترة عصية لماذا تركينها تؤثر على نفسك... كلّ شيء يفوت وبعضني ويبقى التذكار درسا لنا.. أشحت بوجهي عنه لأداري دموعي التي ظفرت من عيني فكلامه كان بمثابة الملح الذي وضع على الجرح..

رغم يقيني من أن الدموع تطهّر النفوس من أحرارها إلا أنني اعتذر لك ربّما أثرت فيك مواجه كامنة ... ويتأثر بالغ على وجهه مدّ يده وربّت على

كتفي بغية مواساتي:

لا داعي للاعتذار قلت أنت على حقّ ...

أنا المستسلمة للأحزان الفارقة في الألم هل يمكن لإنسان أن يرّم نفسه المكسورة ويلعلم أجزاعها المعيرة هذا ما لم أكن أتصوّره ! لكن بعدما رقب القدر لقائي بهذا الرجل أدركت أنني مخطئة في تصوّري... فمن يوم أن وجّه لي ملاحظته ودفعني إلى الابتسام أصبحت أتبسّط

بعد أيام سمعت من أخته التي صدمها تصرفه ونقضه لوعده أنه سافر... إثر سفره غرقت في بحور من الحروف... فقدت الابتسامة ووجهي في المرح... لازمتني كآبة مقبضة رغم أن طبيعة عملي تتطلب البسمة وطلاقة الخيا... تداعت ثقني بكل الرجال وأصبحت كأنني ملقحة ضدهم كلهم... في هو الاستقبال ومن موقع عملي أتعامل معهم بوجه متهم... بعض زبائن الزل لا يبالون بتهجمي لكن فيهم من يلحظه ويمتعض مني حتى نزل عندنا سيد محترم، وقور في مظهره وأنيق في لباسه ومن خلال بطاقته الشخصية التي تسلمتها منه عند مقدمه للتأكد من هويته وتسجيلها في دفتر الزلاء عرفت أنه أستاذ جامعي... ثلاثة أيام وهو يمرّ عليّ عند خروجه وعند رجوعه ليسلمني أو يتسلم مني مفتاح الغرفة التي نزل فيها... بنفس مهمومه ووجه تكسوه غلالة أسس التعامل معه، وكلما رعت عيني أجده يرمقني باستغراب صامت وبعضني في سبيله... في اليوم الرابع مرّ عليّ حين خروجه وقبل أن أمدّ يدي لاستلام المفتاح قال لي:

أمنيتي أن أراك مبتسمة ولو مرة واحدة ألا تعرفين أن الابتسامة واجب اجتماعي؟ وبدأ يسرد عليّ حكما وأمثالا قبلت في

صغاراً يحتاجون للرعاية أم كباراً يعتمدون على أنفسهم في كل شيء أحبابي في سهوم بأن مشيئة الله أبت أن ترزقهما البين... أكثرت فيه طبيته وإنسانيته وسمو أخلاقه فغره من الرجال يطلق زوجته بعد سنتين أو ثلاثة من زواجه منها إذا لم تنجب أي نعم عرفت الكثير منهم... الكثير... حتى وإن كان مستواهم المادي متدنياً جداً إذا ما قورنوا بهذا الرجل أي نعم ما زال في الدنيا يخبرون هكذا قلت في نفسي:

أنا مفتحوعة وهو مفتجوع وألم مشترك ألف بيننا وأصبح كلانا يرى في الآخر ملاذه الآمن، نتقابل كلما سنحت لي الفرصة ونسلى بعضنا باجترار الحكايا حتى انتهت مدة إجازته وأصبح لزاماً عليه أن يغادر الدار لأفتقده أنا بعد ذلك،

فعدم وجوده حولي جعل العالم في عيني صحراء قفر... أحسست في غيابه أنني أحنق في العدم وأخيراً بعد أسبوعين من رحيله كسني في الهاتف ملمحاً لي أنه يطلبني للزواج عسى أغور وافقت وأكذب لو قلت أنني عشقته أو مت فيه صيابة لكن الذي حصل لي معه أنني ارتحت له وشعرت بالأمان فرغم فارق العمر بيننا كنا متفاهمين بصفة لأتصدق قدمته لعائتي وتم زفافنا خلال شهرين فقط فالسيدة الأستاذة جاهر ومستعد ليس هناك ما يعوقه إن هو عجز في

معه في الحديث أكثر... فتكلم في مواضيع عامة حول ما يدور من أحداث في حياتنا اليومية... وشيئا فشيئا صرت أنتظر إطلالته بفارغ الصبر كأني وجدت فيه طوق نجاة يخفف عني بعض ما أعانيه ومن حسن حظي أن إقامته بالدار طاللت لتتولد العلاقة بيننا ويصبح جزءاً مهماً في حياتي تلك الفترة ألوذ به أوقات فراغي، وعندما دعاني ذات عشية إلى كافيريا وافقت على الفور لأني محتاجة إلى صحة طيبة... وجدته متحدثاً بارعاً وإنساناً يجيد فن الإصغاء إلى جلسيه، لما حكيت له عن علاقتي السابقة برفيق وتجرّبي معه والصدمة التي روعتني وتصوّري بأنها ستبقى نقطة سوداء في ملف حياتي تنفر كل من يتقدم لي مصغياً:

دعيك من هذه التصورات ليس في ذلك عيب طبيعي جداً بأن تخوض الفتاة تجربة حبّ سواء نجحت أم فشلت هذه التجربة ومن تنكر هذا وتظاهر بأنها لم تتعلق يوماً بشاب فهي كاذبة مخادعة اللهم إذا كانت على درجة كبيرة من الدمامة أو تنطوي على نفسية معقدة من خلال حديثه معي عرفت أنه حدي الترميل لوجنة توفيت من شهوٍ فقط إثر سكتة قلبية وما زال هو أيضاً يبرز تحت هول الصدمة تأملت لحظتها لفجيعة وسألته هل تركت أطفالاً وهل مازالوا

حمل فأجيبها أحيانا متوترة:

مشيئة الله لم تكن بعد يا أمي وكل شيء بأوانه وأحيانا أجيبها مازحة دعيني أنعم بما أنا فيه من تدليل قبل بحبيء طفل يستحوذ على اهتمام وعطف زوجي... يقيّد حريتي ويشغل كل وقتي فتقول لي:

المال والبنون زينة الحياة الدنيا والسعادة الحقيقية تكتمل عندها يكون بينكما طفل يرحم في أرجاء المنزل حان الوقت لتفكري في البنين وأسألها ماذا تريدان أن أفعل هذه مشيئة الله...

ونعم بالله يا ابنتي لكن هناك أطباء مختصون في أمراض النساء لو ذهبت وأجريت فحوصات ستعرفين سبب هذا التأخير في الحمل.

وفي كل مرة توترني أمي بموضوع الإنجاب أحاول أن أدير دفة الحديث إلى مواضيع أخرى وأقول في نفسي صحيح الجهل معضلة حماتي لأنها إنسانة متعلمة ومثقفة نسبيا لم تخرجني يوما بأسئلتها المتكررة عن الحمل بل بالعكس لاحظت أن الأمر لا يشغل بالها إطلاقا بقيت ستين أمي تطاردني بأسئلتها وأنا أتخاشى الخوض في الموضوع حتى كان يوم زرعها وصممت أن أقضي ليلتي عندها وأنام بين إخوتي وطلبت من أمي أن يكون عشائونا "شخشوخة" فانا أحب كثيرا هذه الأكلة ومن

قراره... عيشي أصبح آمنا مستقرا ووغدا بفضل عطاء زوجي وسخائه وحنانه المتدفق واهتمامه وولعه بي... إنسان مليء بالحب والخير للكل حتى مع عائلتي أمه التي تعيش معنا أحاطتني هي أيضا بوذ وعطف كبيرين ما جعلني أغبط نفسي أحيانا وأتساءل لم هي ليست ككل الحموات ؟ فانا سمعت حكايات كثيرة عن غيرة الحموات ومشاكساتهن استغفرتني حياتي الرغيدة في ظل هذا الزوج الذي حملته إليّ المقادير وأصبح كلّ هي وتفكيري إلّا في أين سنقضي نهاية الأسبوع ومع من سنخرج من الأصدقاء هذه الليلة ومن سنستقبل منهم غدا وماهو آخر شريط يعرض في قاعات السينما؟ ودالما مذكرة فوق مكتب زوجي تدون فيها برامج السهرات والحفلات الموسمية... لم تكن لي مسؤوليات كبيرة طبعاً الشغل انقطعت عنه قبل زفاني تنظيف البيت تعيني عليه خادمة والطبخ من اهتمام حماتي معظم الأحيان... حماتي التي ظلت تسميني بالعروس حتى بعد ستين من الزواج كلّ هذا الإفراط في تدليلي جعل مسألة الحمل والإنجاب لم تخامرني لحظة حتى زوجي وأمه لم يسألاني يوما أو تطرقا إلى هذا الموضوع عدا أمي التي كلّما زرعها بين الفينة والأخرى فحالها تراني تسألني إن ثمة هناك

بما لَدَّ وطاب من فطير... ومطبقة ورفيسة  
تونسى رحيب بها وطرت فرحا بمقدمها وبما  
جليته لي... فعلا أكالات أحبها... بقيت أُمي  
معنا ساعات تتحاذب هي وحماتي أطراف  
الحديث الذي لم يخل من النكات والضحك  
وقبل الغروب أصرت أُمي على العودة قبل أن  
يدامها الظلام وكعادة كل النساء مهما طال  
بهن الجلوس والكلام إلا أن الحديث يجلو أكثر  
عند المغادرة وهذا ما جرى عندما رافقت حماتي  
أُمي إلى الباب تركتهما في العتبة تتهامسان  
بحديث لم أتبينه وعدت إلى قاعة الجلوس مسرعة  
لأواصل مشاهدتي لحوار مع إحدى الفنانات  
تثت التلغزة في تلك اللحظة...

ذهبت أُمي وعادت حماتي بعدما أغلقت  
الباب وعلى وجهها اكفهرار ووجع حيرني  
وبقيت أتساءل في سرّي ما الذي عكّر صفوها؟  
أكيد أُمي تلفظت بما لم يعجبها... حماتي  
متحذقة شيئا ما ومعتدة بنفسها وأُمي مسكينة  
ريفة تصرف بكلّ عفوية وبساطة... لا تعرف  
الكياسة ولا هم يحزنون... ترمي الكلام على  
عواهنه... ليتني يا إلهي أعرف السبب لأدرك  
الأمر وأصلح ما فسد.

حاولت أن أسير غورها وسألتها عن سبب  
هذا التغير المفاجئ فلم تجبني... اكتفت بنظرة

مدّة طويلة لم ألتذوقها لأنّ حماتي لا تعرف  
إحضار هذا الطبق بالمرّة فهو من اختصاص  
سكان الشمال والجنوب الغربي لبلادنا وحماته  
"بلدية" أكلت من طبقي اللذيذ بنهم شديد في  
تلك الليلة ونمت ومع الفجر أفقت على دوار  
وغثيان ثم قيء ما جعل كلّ من في الدار يهرع  
جزعا نحو... كانت أُمي في تلك اللحظة تشدّ  
بقوة على رأسي وحيبيتي وأنا أجاهد القيء  
وعندما تهدأ معدتي قليلا تسكب الماء البارد على  
وجهي وأطرافي ولم ألحظ على وجهها جزعا أو  
خوفا بل بالعكس عندما نظرت في عينيها  
فاجأتني بنظرات مفعمة بالفرح وتحميل ألف  
معنى لم أفهمها آنذاك واقترح علي أخي أن  
يرافقني إلى مصحة استعجالية لكنني رفضت  
وقلت له أكيد سوء هضم أو نزلة مقوية وعندي  
أدوية بالبيت فلا داعي إذا من الذهاب إلى  
"الإستعجالي" وفي الصباح شعرت بتحسن  
حالتي فغادرت منزل أبويّ الموجود بالضاحية  
الجنوبية قاصدة أريانة أين يوجد بيتي وهناك  
وجدت زوجي وحماتي في انتظارني على الغداء  
ورغم أن شهيتي للأكل يومها معدومة تماما  
جلست أمام المائدة دون رغبة بمأكلة لها ولم  
أخبرها بما حصل لي لأنّني لم أشأ إزعاجهما.

لم يمض أسبوع وفاجأتني أُمي بزيارتها حملة



أنني حائض ذلك اليوم وأين تكمن المشكلة لو كنت حاملا انقضَّ عليَّ ابنها صفعا وركلا وشتائم وصراخ:

يا عاهرة قولي ممن حملت؟ قولي سأرفع قضية زنا ضدك يا ساقطة... سأزج بك في السجن أنت والوغد الذي حملت منه يا خائنة عندي شهادات طبية وتحاليل تثبت أنني عقيم...

وتحت وطء الصدمة همست عقيم؟ أكلت تلك الوداعة والحنان الذي أغدقه عليَّ ناتج عن عقدة عدم الإعجاب المترسية بأعماقه؟ أكلت ذلك الإفراط في تدليلي لتخديري وصرف نظري عن

موضوع الإعجاب؟ هل ظنَّ لو صارحتي سأقيم الدنيا ولا أقعدها، لو أعلمني بعقمه منذ البداية هل كان الحال يصل بنا إلى هذا الموقف المشين. هول التهمة التي وجهها إلى مرقت قلبي وألجمت لساني ولم أقوى على الكلام ولا الدفاع عن نفسي لكن قبل أن أخرج بحقيقتي قاصدة بيت أبي ناديت أمه لأوريها فوطه دم حيضي بعدما سحبتها من بين فخذتي أمام عينيها وهمست في انكسار:

كلها هيوات أمي أنا لست حاملا... خرجت وأنا أردد بيني وبين نفسي "سامحك الله يا أمي أنت وشخشوختك".

حاددة ودخلت غرفتها ولم تغادرها... تركتني لنهش الحيرة والهاجس مرددة من حين إلى آخر "بماذا تفوهت يا أمي وخدشت مشاعر وكبرياء حماتي المصون...؟"

وجاء زوجي، ابنها... وحيدها... حبيبها ولا أدري أي قوة عارقة جعلتها تهبَّ من مخدعها وتتسمَّر واقفة أمامي في القاعة ونذير الشرِّ في عينيها حالما أدار ابنها مفتاح الباب ودخل هو ببشاته المعهودة ماذا لي كيسا مثلما تعود فمن حين إلى آخر يجلب معه وهو عائد إلى البيت بعض الحلوى والشكلاطة وحبوب عباد

الشمس واللوز وما إن مدَّ لي الكيس حتى تكلمت هي بسخرية لا نفسها الآن ترغب في الشخصوخة وعجز الطابونة والفظير... كرهت الشكلاطة وأصبحت تعافها وصرخت في وجه ابنها مجدَّة:

السيدة المحترمة حامل هذا ما أخبرتني بما أمها اليوم هل علمت منها إلما طلبت من أمها أن تعد لها طبق "الشخشوخة" لأن نفسها تأقت إليه هذه الأيام وهل علمت منها أيضا بأن نوبة قيء انتابتها في الصباح عندما قضت الليلة في بيتهم هذه يا سيدي الناعم الغافل أعراض حمل مثلما قالت أمها... نظرت إليها في ذهول وقبل أن أفتح فمي لأقول لها بأنني لست حاملا بدليل